سلسلة آفاق عربية
117

الهيئة العامة لقصور الثقافة

عين الهرّ

رواية

شهلا العجيلي

عين الهرّ

رواية

شهلا العجيلى

وزارة الثقافة

الهيئة العامة لقصور الثقافة

سلسلة
آفاق عربية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد
أمين عام النشر
سعد عبد الرحمن
الإشراف العام
جمال العسكرى
الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• عين الهر
• شهلا العجيلى
الطبعة الثانية
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2009 م
160ص. 5ر13 × 5ر19 سم
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• رقم الإيداع: ٧٥٣٧/ ٢٠٠٩
• الترقيم الدولى: 978-977-479-137-3
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

117

سلسلة شهرية تعنى بنشر أعمال الأدباء العرب

• هيئة التحرير •
رئيس التحرير
إبراهيم أصلان
مدير التحرير
لبنى الطماوى

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة. أو بالإشارة إلى المصدر.

عيــن الهــرّ

ـ ١ ـ

أسوأ حبّ، هو الذي يُباغتكَ متأخّراً..

بعد أن تكون قد أغلقتَ باب العمر وراءكَ، أو أشرعته على منافذ أخرى!

هو حبّكَ الذي ليس بإمكانكَ أن تلبّيه، لأنّ مصائر الآخرين متعلّقةٌ بك. هو الحبّ الذي معه تكتشف شيئاً من تناقضات الأقدار.

على الرغم من كرهي مقولاتِ الالتزام كلّها، لا أستطيع إلاّ أن أكون ملتزمةً، على الأقلّ في الإطار العامّ لحياتي، حياتي التي سارت، تقريباً، كما رجوت، حتّى هذه اللّحظة على الأقلّ، لأنّني دائماً كنتُ أتملّص من المنعطفات بمجرّد استشرافها، مع إيماني بأنّ الطريق الملتفّة والمعتمة، أكثر جمالاً ومتعة من الطريق الواضحة المستقيمة، التي تنبسط

تحت الشمس.

كنتُ أتملّص من منعطفات حياتي بالتلهّي بمنعطفات حيـــوات الآخرين. لطالما ظننتها هواية، وإذ بها طريقة للنجاة!

واليومَ، بتُّ أعرف أنّني كلّما أغرقـــتُ نفســـي في البحـــث، قصدتُ الهرب ممّن يبحث عنّي. ولكن هذه المرّة، كنتُ موقنةً بأنّـــكَ كاللّيل الذي هو مدركي!

ـ٢ـ

لكثرة تقلّبه، سُمّيَ قلباً!

كم يُدهشني أولئك الذين يحبّون مرّة واحدة، وإلى الأبد!

يُدهشني صبرهم، واكتفاؤهم، وقناعتهم بالحبّ الأوّل! ليس المهمّ أن يكون المرء الحبّ الأوّل، بل المهمّ أن يكون الأخير! فهل سأكون الأخيرة، وهل ستكون الأخير؟

ومع ذلك سأعمل على التشاغل عنك بالآخرين، ريثما يتكاثف حضورك في حياتي، بالشكل الذي ترهص به نفسي.

سأنشغل عنك بها، هي التي سأمنحها الاسم ذاته، الاسم الذي أختاره لكلّ ما يخرج من تحت قلمي، فكلّ قصّة أكتبها أسمّيها "أيّوبة"، وكلّ بطلة أرسمها أسمّيها "أيّوبة". ثمّة أسماء نحملها، تلك التي قال عنها

ولد في الأردن لأب سعوديّ، وأمّ عراقيّة، وقد قضى حياته متنقّلاً بين المنافي...

آه.. إنّنا نفقدهم الواحد تلو الآخر.

حزنت، ثمّ حزنتُ مرّة أخرى، لأنّه مات قبل أن يقرأ روايتي.

قال لي صديق يقرأ الطالع: هذا العام، سنفقد شخصيّة روائيّة عربيّة هامّة، وشخصيّة أخرى فنيّة. أخشى أن تكون: "..."

قاتلكَ اللّه يا صديقي، كم تثير فيّ الفزع!

خبر آخر:

ـ معرض المجوهرات العالميّ، يُقام في "دبيّ"، "برج العرب"، يُفتتح في السابعة مساءً، تشارك فيه أهمّ وكالات المجوهرات العربيّة والعالميّة، ولأوّل مرّة، جهاز فحص المجوهرات باللّيزر...

خبر آخر:

ـ صفقة تبادل الأسرى بين "حزب اللّه" وإسرائيل، سيتمّ تسليم ٤٣١ أسيراً عربيّاً، فلسطينيّاً ولبنانيّاً في سجون الاحتلال، مقابل تسليم جثث ثلاثة جنود إسرائيليّين لدى "حزب اللّه"، مع شخص العقيد الاحتياط في الجيش الإسرائيليّ: "الحنان تننباوم". وسيكون الإفراج عن الأسرى بوسيط ألمانيّ، بعد فحص الحمض النوويّ للجثث، والتأكّد منها في ألمانيا...

ـ٤ـ

ارتديتُ ملابسي، وتوجّهتُ إلى "برج العرب"، أُزجي الوقت بزيارة معرض المجوهرات، ريثما يحين موعد عشائي اللّيلة مع ناشـــري. بالطبع، لم أنسَ خاتمي الماسيّ، ولؤلؤتي السوداء في عنقي، الموقّعان باسم "بونجه"، الجواهرجيّ الحلبيّ الشهير، كي أبدو منسجمة مع العالم الذي أتّجه إليه.

* * * * *

ترفٌ قاتل!

القاعة كلّها تتلألأ، لا يكاد المرء يميز السماء مـــن الأرض، إذ يُفاجأ بصورته وبصور الآخرين، فوقه، وتحته، وأمامه، ووراءه. تحاصركَ الأجساد، وأجهزة الإنذار، حتّى لتشكَّ في نفسكَ، وتُضطرّ إلى افتعال

مشيتك، وحركات يديكَ وعينيك، لتبرّئ نفسك من شيء لم تفعلـه، ولن تفعله. إنّنا، من جهلنا، لا نتّقي مواطن الشبهات! لمجـرّد تزجيـة الوقت، أزجّ نفسي في موضع تهمة، فكلّ بريء هنا متّهم ريثما يخرج.

* * * * *

في البدء، لا تلفتكَ المجوهرات، بقدر مـا يلفتـك المكـان، والحركة، وروائح البخور، والعطور، ويستغرق الأمر دقائق لتتآلف مع المكان والأشياء، فتتجوّل بين "فيترينات" العرض، وتتأمّـل محتوياتهـا: أروع التصاميم العالميّة، وأجمل الأحجار التي يمكن للعين أن تتأمّلها عن قرب! وهناك أجنحة لمصمّمين عرب، لمحتُ جناح "بونجه"، فشـعرت باطمئنان. وهناك في طرف آخر، جهاز فحص الجواهر، وعليه ورقـة كُتب عليها: "الفحص مجّانيّ".

لم أجرؤ على التجربة، خشيتُ أن أكون قد دفعتُ في أشيائي فوق ما تستحقّ! فتجارة الجواهر من أوسع ميادين الغشّ، والربح فيهـا أكثر من مئة بالمئة، وليس ثمّة ضمانات. ثمّ إنّ أشيائي ستبدو تافهة، إذا كنّا نتحدّث عن جواهر بمئات الآلاف من الدولارات. إذن فلأكْتَـفِ بالتجوال والمعرفة!

*****

لفتني الزيّ المميّز! لن أقول إنّني شعرتُ بأنّي أمام أميرة، بـل

أمام جارية محظيّة جدّاً من جواري بني العبّاس!

هذا ما أوحاه إليّ الثوب الأسود اللاّمع، هو أشبه بالجلبـــاب، لكنّه ضيّق بحيث يشي بملامح جسدها، ومنه غطاء الرأس المثبّت بعصابة مطرّزة بالحجار الملوّنة، تتبعها مجموعة من العقود الفضيّة المحلاّة أيضـــاً بالأحجار، تكسر حدّة سواد الثوب، والذي يزيد الأمرَ طرافـــة، هـــو الخفّ الفضيّ الطويل، ذو الرأس المعقـــوف نحـــو الأعلـــى، كخـــفّ السندباد، يحمل جسداً في أواخر العشرينيّات، ممشوقاً، على الرغم مـــن امتلائه، أمّا الوجه، فيبرز الكحلُ الأسود العنيف بياض بشـــرته، وورد خدّيه، وشفتيه، بانسجام تامّ.

اقتربتُ من "فيترين" العرض الذي تقـــف المـــرأة وراءه، وإذ بلوحة التعريف بأصحاب الجناح، وقد حملت العنوان: حلب_ سورية.

ألم أقُل: إنّكَ كاللّيل الذي هو مُدْرِكي!

ـ٥ـ

على الحدود، أشرعتُ حقائبي لموظّف الجمارك. هذه المرّة، لم آتِ معي بالحلو العربيّ المشكّل، ولا بالكرابيج، ولا بمخلّل لفت من "الجميليّة"، ولا بمربّى الباذنجان من "الخالديّة"، كانت معي ملابس قليلة، وكتب كالعادة، كتبٌ مَلّت الارتحالَ الدائم من "حلب" إلى "عمّان"، وبالعكس.

في تلك اللّيلة القارسة من ليالي كانون، وفي نقطة التفتيش الأردنيّة ـ السوريّة، أدركتُ لأوّل مرّة معنى "الحدود"، على الرغم من مروري شبه الأسبوعيّ بها، وحينما كانت حقائبي تخضع للتفتيش، كنتُ أُخضع كلمة "الحدود" لتفسيراتي المعجميّة الخاصّة. ثمّة كلمات كثيرة نتفوّه بها آلاف المرّات، بلا إحساس أو تفكير!

"الحدود" تعني نمطاً آخر من التفكير، تعني أنّ الاتّصال بيننا مكالمة دوليّة، وأنّ ولاءاتنا ليست لمليك واحد، حتّى الشوق يصبح خاضعاً للاتّفاقيّات الدوليّة، لأنّك حينما تشتاق، ليس بإمكانك أن تُخضع سلطتين متخاصمتين للواعج أشواقك، فتفتحان حدودهما أمامك، على الرغم من كونه عالماً واحداً، وكونها عائلة واحدة!

في اللّحظة التي كانت تنفتح فيها كلمة "الحدود" على مزيد من معاني الضيق والتضييق، كانت حقائبي تُغلق، وكانت رغبة بالعودة غير قابلة للتحقّق تداخلني، حينها فقط، أدركتُ أنّني أتورّط لأوّل مرّة في المنعطفات!

نظرتُ ورائي، لا شيء سوى برْد اللّيل وسواده، الذي تبدّده أضواء تنتشر في القرى الحدوديّة، وبعيداً بعيداً، حيث لا يمكن لي أن أرى، ثمّة "حلب".

قال: "من يترك حلب، ينسَ الطريق إلى حلب". واللّه، لقد كذب!

ـ٦ـ

تبدو "عمّان" "كوفي شوب" كبيراً، يتلجلج الناس فيه بين متعلّقات البداوة وعتبات المدنيّة. كنتُ أتجوّل في المول الكبير "مكّة"، وتتبادر إلى ذهني صورة "مكّة" وأهلها، في فيلم "الرسالة" لـ "مصطفى العقّاد"، في هذا "المول" الطويل العريض، يمكن للمرء أن يحصل على أيّ شيء. اشتريتُ قلماً، وبطاقة "كريدت" للموبايل فحسب. لا أدري لماذا كلّما أربكتني البضائع، لا أشتري سوى قلم! لعلّه الشيء الأهمّ، على الأقل بالنسبة إليّ، الشيء الذي ينقذني.

قلمي وبطاقة "الكريدت" الآن ضدّان، فالأوّل ينقذني، والثانية تورّطني، وتراودني عن صمودي. هل أشحن موبايلي، فأكلّمك؟! لأكتشف أنّ القلم وبطاقة "الكريدت" متواطئان، فبالأوّل أكتبك،

وبالثانية أكلّمكَ. لماذا كلّ الأشياء تتواطأ معك ضدّي؟!

*****

اليوم في "عمّان"، وغداً في "حلب". قد يرى الآخرون في نمط حياتي هذا، شكلاً من أشكال التعذيب، لكنّه محض اختيار!

وقّعتُ عقداً مع إحدى القنوات الفضائيّة الخاصّة، التي مقرّها "عمّان"، أعدّ فيها برامج ثقافيّة، مع احتفاظي بعملي في المركز التلفزيونيّ في "حلب"، وبعد قليل، قد أترك "حلب" ومركزها إلى الأبد، لأستقرّ في "عمّان".

وهكذا، رتّبتُ حياتي، التي لا شيء فيها سوى الكتابة والقراءة، وحتّى أنت ستخضع لهذا السياق! فإمّا أن تكون في حياتي كائناً مقروءاً مكتوباً، وإمّا ألاّ تكون، هذا ما سأحاول توخّيه على الأقلّ.

* * * * *

في ذلك اليوم الذي التقينا فيه في "دار الياسمين"، على العشاء الذي أقامه المركز الثقافيّ الفرنسيّ في "حلب"، حيث كنّا نعرف بعضنا بالاسم والشكل فقط، سألتني عن سبب اختياري هذا الشقاء المتمثّل بالترحال الأسبوعيّ، ودارت تكهّناتك حول رغبتي في جني المال، على الرغم من عدم وجود التزامات تضطرّني إلى ذلك، وترسيخ الموقع

الإعلاميّ، الذي لن تمنحني إيّاه فضائيّة صغيرة، كالتي تعاقدتُ معهـــا، واحتمالك الثالث كان الهروب.

لم أُجب ليلتها، لأنّني لم أجد إجابة خاطفة، تتناسب مع لقائنا السريع، فالإجابة تستحقّ أن أحكي مطوّلاً.

في الآونة الأخيرة بات السؤال يلحّ عليّ، ليس لأنّه ســؤالك، لكنّي بتُّ أفكّر، بعمق، بالسبب الجوهريّ في اختياري تلك الطريقــة المضنية في الحياة. فحينما اخترت، لم أتساءل عن السبب الذي دعــاني إلى ذلك، وإنّما فكّرت فقط في إيجابيّات الاختيار وسلبيّاته.

بعض الناس، وأنا منهم، لا يستطيع العيش بهدوء، ولا يناســبه الاستقرار، فلا بدّ من أن يلتزم قضيّة تؤرّقه، وإن لم يجد، فسيخترعها. لقد غادرت "حلب"، ونفيتُ نفسي إلى "عمّان"، لأصنع منّي بطلاً. قد لا يكون نفياً، ولكنّنا منفيّون!

منفيّون، نتمرّد على نفي آخر، نفي اجتماعيّ ـ ثقافيّ، يحوكــه حولنا قراصنة، يقتاتون من وجودنا، فيناصبوننا التهميش، مع الاحترام المطلق. وأنا قرّرتُ في لحظة أن أقطع رزقهم من ناحيتي، فأضــرب في الأرض، حيث ثمّة منأى للكريم عن الأذى! إنّــك حينمــا لا تكــون براغماتيّاً أو قرصانَ ثقافة، أو سياسة، أو فارس موج، فإنّ التهميش هو السلاح الوحيد الذي يمكن أن يُشهر في وجه احترامك لذاتك.

ومع أنّي أملك كلّ أعنّتي للعودة، لن أعود، ولو من أجلـــك، ولن أشحن موبايلي، ولن أكلّمك اللّيلة.

ـ٧ـ

علَيّ أن أتابع الكتابة، قبل أن يشرذم استحضـــاركَ المســـتمرّ ذاكرتي:

في الصيف الماضي، خطر لي أن أكافئ نفسي علـــى برنـــامج أنجزته، وقد لاقى صدىً طيّباً في الأوساط الإعلاميّة، وذلك بعقد مـــن المرجان والذهب. إنّ الحجر إحدى نزواتي، ومثله العطور، والسجّاد.

كنتُ قد أتيت من الجزائر بعقد من المرجان الأحمر النـــاريّ، حينما ذهبت للمشاركة في أحد المؤتمرات، وتركت المرجان في أحـــد الأدراج، منتظراً مبلغاً من المال كي تتمّ صياغته بذهب خالص، كمـــا صمّمتُ في خيالي.

في ذلك الصيف، أخذتُ مرجاناتي، ونقودي، إلى العنوان الذي

دوّنته في مفكّرتي، يوم زرتُ معرض المجوهرات في "برج العرب"، حيث كانت المرأة ذات الثوب الأسود اللاّمع، تقف وراء "الفيترين".

*****

إنّه سوق الصّاغة القديم في حيّ "الجدَيْدَة"، أحد أحياء "حلب" القديمة المشهورة. أعرف المنطقة كما أعرف كفّي، كيف لا، وقد خلعتُ على ملاعبها شبابي!؟

وصلتُ عبر الأزقّة المنعطفة يمنة ويسرة إلى العنوان المحدّد، لم يكن دكّاناً كدكاكين الصّاغة المتشابهة في ذلك الحيّ، ولا صالة عرض ذات صلة بما رأيته في "برج العرب"، بل كان بيتاً عربيّاً، "حوش"، من أروع ما رأيت! لكنّني لم أجد "أيّوبة". سألتُ عنها، فقالوا لي إنّها تركت العمل هنا، وسألني ـ ويبدو مدير الصّالة ـ عمّا أريده منها، فأجبتُ بلا تردّد: أحمل لها أمانة!

ارتددتُ على عقبيَّ، من دون أن أتحدّث عن شيء آخر، وكأنّني جئتُ من أجلها، وليس من أجل عقد المرجان.

على الباب الخارجيّ، قال لي أحد المستخدمين بصوت خفيض: تجدينها في جامع "العادليّة".

*****

جامع "العادليّة"!

أعرفه، ولكن ماذا تفعل تلك المرأة هناك!

هذا مناسب جدّاً، إذ يبدو أنّني في هذا الصيف لن أضيّع اللّبن، سأتلهّى عنك في عقر دارك بهذا المشروع الروائيّ. سبحان اللّه! يرزقني من حيث لا أحتسب!

ـ٨ـ

بعد أن كسرت الشمس عينها بعيد العصر بقليل، توجّهتُ نحو حيّ "القلعة"، مصطحبةً غطاء رأس، تضعه الداخلات إلى الجامع.

كانت فرصة لأعاود السياحة في أماكن هجرتها منذ سنواتي الجامعيّة الأولى. لم أدخل عبر سوق "المدينه"، فقد خشيتُ أن أتوه بين الزواريب، فيسرقني الوقت في الفرجة على الأقمشة، والمصاغ، والألبسة الشعبيّة، ومفارش الأسرّة والطاولات المطرّزة بالقصب، والنحاسيّات، وعلب الموزاييك، وأدوات الزينة، والسجّاد، والأطعمة. سلكتُ الطريق التي أعرف، إذ التففتُ خلف "خان الشونة" الأثريّ، ودخلتُ في المفرق الذي يؤدّي إلى "كنيسة الشيباني"، وقبل أن أنعطف يسرة، واجهني الباب الخلفيّ لجامع "العادليّة". كنتُ قد زرتُ المكان غير مرّة، إحداها

كانت رحلة جامعيّة، وأخرى لا أنساها ما حييت، مع جدّتي وقريباتها، إذ أحيينا ليلة القدر ها هنا حتّى مطلع الفجر، ذلك أنّ صلة قرابة تربط جدّتي بإمام كان في هذا الجامع، لها شغف بحديثه.

*****

كان ثمّة صغار يُطعمون طيوراً في صحن الجامع، وإلى اليمين، عن بُعد لمحتُ رجلاً يمدّ السجّاد فوق الحصائر، في الباحة المسقوفة بمجموعة من المقرنصات الأثريّة البديعة، وفي الطرف الآخر، يوجد بناء جانبي، على شكل بيت صغير جميل، لم ألحظه قبلاً!

ناديتُ أحد الأطفال، فتوجّهوا إليّ جميعاً، كانوا خمسة، أو ستّة. سألت: ما هذا البيت؟! فأجاب أحدهم، وكان يرتدي "جلاّبيّة" بيضاء، وطاقيّة "عرقيّة": بيتنا. وإذ بالإمام وأسرته يسكنون البيت، في قلب الجامع!

سألته عن "آيوبة"، فأشار: هناك، حيث غرفة صغيرة، تبعد أمتاراً قليلة عن بيتهم.

*****

لم تعرفني المرأة للوهلة الأولى، وبدت متفاجئة من سؤال شخص غريب عنها. وأنا أيضاً بتُّ متفاجئة من التغيّر الواضح والشديد الذي طرأ على شكلها، وكأنّها ليست هي التي رأيتها في "برج العرب"!

ذكّرتها بنفسي، فتذكّرت، ورحنا في حديث غير قصير حول معرض المجوهرات ذاك، ولقائنا فيه في "دبيّ".

في الحقيقة، كان الفضول يستبدّ بي لمعرفة سبب تبدّل حال المرأة، وشكلها، ولباسها، وفي حين كانت تجهّز الشاي في مطبخ صغير في زاوية الغرفة، انتهزتُ الفرصة لأتفحّص المكان، علّني أستشفّ شيئاً يسعفني اللّيلة في الكتابة.

كانت غرفة ضيّقة طويلة، مفروشة بالحصر والسجّاد، مثل ما هو في صحن الجامع، تشكّل طرّاحاتٌ إسفنجيّة، ملبّسة بقماش جديد، المحيطَ المستطيل للغرفة، حوافّها ملتصقة بالجدران، على شكل مدٍّ عربيّ، تفصل بينها مساند ملبّسة بالقماش ذاته. وعلى طاولة صغيرة، يوجد تلفزيون، وإلى جانبي على الطرّاحة، ثمّة مجموعة كبيرة من السُّبَح، ومجموعة خيوط، وخرز ملوّن، في صناديق كرتونيّة صغيرة. يبدو أنّ المرأة تعمل في ضمّ السُّبَح!

حكيتُ لها عن ذهابي إلى العنوان الذي أعطتني إيّـاه في "دبيّ"، وعن سؤالي عنها، وأخرجتُ عقد المرجان، وسألتها رأيها.

أمسكت العقد بين أصابعها مسكة محترف، ومرّرت نظرهـا عليه، وقالت:

ـ جميل، مبروك!

المرجان حجر كريم، وهو من أقـدم المـواد العضـويّة الـتي استخدمت في صناعة الحليّ، ومرجاناتك من النوع الأحمر القاتم، الذي يُسمّى "دم العفريت"، والأكثر قيمة منها، ما كان بلون ورديّ فـاتح، مع ميل نحو لون اللّحم، تلك التي تُسمّى "جلد الملاك"، لا شكّ في أنّها من شواطئ المتوسّط، أم هي من البحار الاستوائيّة؟

قلت: من الجزائر.

هزّت رأسها، وكانت ملامحها قد تغيّرت عليّ، فعادت تلك "المحظيّـة" التي رأيتها في "برج العرب"!

وتابعت:

ـ المرجان تميمة للحماية من الأمراض، والحوادث، والعين السيّئة، عند بعض الشعوب. وجمال هذا العقد في كونه غـير مشـغول. إذا أردتِ رأيي، لا تصوغيه، وحافظي عليه من الصابون والعرق، فهما مضـرّان به.

بدت "أيّوبة" شخصاً محترفاً، عالماً بـالحجر والجـواهر، ولا أدري لمَ شعرتُ بدبيب خوف!

قالت:

ـ لقد تركتُ العمل هناك، وانتقلتُ لأخدم هنا، في بيت اللّه!

وبسرعة تحوّلت ملامحها من العرّافة، أو المحظيّة التي رأيتها للمرّة الأولى، لتتقمّص دور خادمة الجامع.

لقد صارت مسؤولة عن قسم النسـاء. تراقـب الـدروس، وجلسات الذكر الخاصّة بهنّ، وتقوم على خدمتهنّ، فتعدّ ثياب الصلاة، وتنظّف المكان المخصّص لهنّ، وتقوم بإعداد الضـيافة في المناسـبات الخاصّة، وترتّب المصاحف، والكتب، وغير ذلك من الأعمال المنوطـة بها، فضلاً عن ضمّ السبح، وبيعها لأصحاب المناسبات الذين يوزّعونها عن أرواح موتاهم، أو للتبرّك بتسبيح اللّه في المناسبات السعيدة.

سألتني عن سبب سؤالي عنها بالذّات، فقلتُ: واللّه، لقد بقيتِ في بالي كلّ تلك المدّة، ولمّا لم أجدكِ في ذلك المحلّ، أردتُ أن أعـرف أخباركِ، فالذي يراكِ، لا ينساكِ، لديكِ مظهر مميّز، وطريقة خاصّـة في الكلام، تذكّر بالأساطير، لكنّكِ تغيّرتِ كثيراً، وكأنّكِ لستِ أنتِ!

ولمّا علمتُ أنّكِ تقيمين في جامع "العادليّة"، استبدّ بي الفضول بشدّة لمعرفة المزيد!

ابتسمت المرأة ببراءة، وراحت تسألني عن حالي وعملي، وبقينا نتحدّث حتّى رُفع أذان العشاء، فملأتني غبطة تشرح القلب! لم أسمع الأذان بهذا القرب من قبل! اغرورقت عيناي مع نسمات صيفيّة عليلة، هبّت من نافذة صغيرة تشرف على صحن الجامع، مشرّبة بريح الريحان والكافور والنرجس. أخذتُ نفساً عميقاً، مردّدةً: اللّه أكبر! فردّت "أيّوبة": اللّه لا إله إلاّ أنتَ، سبحانكَ، إنّي كنتُ من الظالمين!

* * * * *

خشيتُ من أن أثقل عليها بالأسئلة، فترتابَ في أمري. فعلى الرغم من براءتها، وعدم تحفّظها، لا أظنّها ستخوض غمار أحاديث خاصّة مع غريبة مثلي، التقتها مرّة في "دبيّ". ولكن، قد يكون لقاؤنا هناك فتح الحدود بيننا، وذلك لذكرى مشتركة صنعناها في مكان بعيد وغريب.

قرّرتُ أن أسلك أقصر الطرق، فقلتُ لها بأنّها قد ألهمتني فكرة رواية، إذ شعرت أنّ وراءها شيئاً غير عاديّ يحضّني على استكشافه، وفي الوقت ذاته أستعيد علاقتي بالأمكنة هنا، وأطّلع من جديد، وأعرف.

سُرّتْ كثيراً، وأعربت عن إعجاب شديد، كوني أكتب الرواية!

وقالت إنّها قرأت بعض روايات "نجيب الكيلاني"، كما قرأت بعض كتب السير والأخبار، فضلاً عن قراءتها كتباً حول الجواهر والأحجار الكريمة والثمينة.

محبّتها للأدب سهّلت طريقي!

حينما عدتُ إلى أوراقي، وجدتُ أنّ كلّ شيء فعلته حتّى اللّحظة كان غريباً، وفكّرتُ طويلاً في كنهه، فوجدتُ أنّه، في النهاية، تلهٍ عنك بالآخرين، ليس إلاّ!

ـ٩ـ

غداً أمامي الكثير لأفعله. سأسافر إلى مـــدينتي لأنجـــز بعـــض المعاملات الرسميّة: متعلّقات ببعض الأملاك، وتجديد جواز الســـفر... وسأرى الأهل والأصدقاء، فبالنسب، "حلب" ليست مدينتي، مـــدينتي تبعد عنها حوالي مئتي كيلو متر شرقاً، مدينة كانت وما تزال غافية على شاطئ نهر. وعلى الرغم من أنّ "حلب" هي المدينة التي أحبّ أن أعيش فيها، فإنّ مدينتي هي المكان الذي أحبّ أن أموت فيه، فأُدفن في المقبرة ذاتها التي تضمّ جثامين الأجداد، المقبرة ذاتها التي كثيراً ما ندبنا فيها أهلاً وأحبّة، وبكيناهم صباحات الأعياد، وكثيراً ما قرأنـــا فيهـــا الفـــواتح لأرواحهم في زيارات يوم الجمعة، التي لم تكن عمّتي تفـــوّت إحـــداها إطلاقاً. المكان ذاته الذي طالما لمحتُ فيه نساءً يرتدين عباءاتهنّ الســـود،

يحفرن بين القبور، ويدفنّ حجباً، وقاذورات، وتمائم تثبّت السحر ـ أعوذ باللّه من شرّهنّ ـ نعم، مدينتي مجبولة بالسحر، والحبّ، والضغينة!

هي التي قيل فيها: من يدخلها يبكِ، ومن يخرج منها يبكِ!

فكلّ من دخلها من المتنفّذين، والمسؤولين، وموظّفي الحكومة صغاراً أو كباراً، يظنّ أنّ تعيينه فيها عقوبة له، وذلك لأنّها صغيرة ونائية، وبعيدة عن مراكز المدنيّة، وليس فيها من المتع سوى القليل. لكنّه يكتشف بعد حين أنّه وقع على مغارة "علي بابا" المليئة بالكنوز، فيغرف ما طاب له من الخيرات التي تغنيه حتّى ولد ولده. وحينما يأتي الأمر بنقله، يحزن كثيراً، لأنّه أراد المزيد!

لم أعرف فيما قرأت من التاريخ، مدينة كمدينتي، وناساً كأهلها، قدّموا الكثير للغرباء، على حساب رغدهم، وراحتهم، وأواصرهم! في الحقيقة، لا أستطيع أن أجزم: مَن أفسَد مَن؟ هل أهل مدينتي هم الذين أفسدوا القائمين عليها وبطاناتهم، ببذل الهدايا والعطايا، أم القادمون القائمون أفسدوا أهل مدينتي بعدم تسيير الأمور إلاّ بقدر المعلوم؟!

سأقنع نفسي بأنّها علاقة ديالكتيكيّة. المشكلة هي أنّ ملفّ الفساد الذي فُتح في سائر أنحاء الوطن، أُغلق عند مدينتي، لأنّ أمر

الفساد فيها قد فاق قدرة العقول المسؤولة عنه في العاصمة على البحث، إذ لم تُعرف بدايته من نهايته، الكلّ متورّط، بما فيهم أهل العاصمة، ولا يمكن أن تُحلّ الأمور إلاّ بقضاء إلهيّ، هذا ما تشير إليه مجريات الأمور حتّى اليوم.

*****

الموظّف في دائرة البلديّة، أوقف لي المعاملة، لأنّ موافقة الوزير الصريحة تنقصها. في الحقيقة، لا ينقصها شيء، فالحاشية التي خطّها الوزير تشير إلى موافقة صريحة، لكن بصيغة لغويّة أخرى، غير الصيغة التي اعتادها الموظّف. هذه الحاشية وضعها الوزير ليمنحني مساحة من الحريّة في التصرّف بالطريقة التي أريد، لكنّ الموظّف أصرّ على تخطيئها، وعلى تعديل الحاشية، وهذا يعني إعادة الطلب إلى الوزارة، كما يعني شهراً أو أكثر من المماطلة، والتأخير، والإحراج!

في النهاية، ليس عليّ سوى أن أكظم غيظي، لأنّ أبي، أو عمّي، أو أحد أقربائي، سيحلّ المشكلة بشكل أو بآخر.

قال أبي حينما حكيتُ له: "عدو جدّكْ ما يْودّكْ"!

فكّرتُ: نعم! صحيح! هذا هو المنطق الذي ما زال أهل مدينتي يتعاملون به، فما يزال فيهم شيء من جاهليّة، إذ تحوّل مفهوم الثأر لديهم من الإضرار الماديّ بحياة الآخر، إلى الإضرار بمصالحه، لذلك

يقتحمنا الغرباء، ويتنفّذون فينا. وحين يصير أحدهم متنفّذاً، أو مسؤولاً، فإنّ الفتك بذوي القربى من أهل بلده، ونهب خيراتها، هو أوّل ما يفعله! قد يحدث ذلك في كلّ مكان في العالم، لكنّ الأشياء في مدينتي تحت عدسة مجهر دائماً، فكلّ شيء مكشوف، لصغرها، ولمعرفة أهلها بعضهم ببعضهم الآخر، فيبدو فيها جليّاً أنّ الكرامات تورّث، وأنّ الخيانات تورّث: فالذين ناضلوا ضدّ المحتلّ التركيّ، ناضل أبناؤهم ضدّ المستعمر الفرنسيّ، وأحفادهم ناضلوا، ويناضلون ضدّ التدجين، واغتصاب الحرّية. والذين تحالفوا مع المحتلّ، تحالف أبناؤهم مع المستعمر، ونمّوا على الثوّار، وأفشوا الأسرار، وغدت كتابة التقارير الأمنيّة ضدّ مواطنيهم مهنة أحفادهم، وهم نفسهم _كما سمعتُ من أحد مسؤولي الأمن الكبار_ حاولوا التواطؤ ضدّ الحكومة التي هم معها، مع جماعات متطرّفة، حاولتْ، في مرحلة ما، الانقلاب على الحكم! لأنّهم دائماً يركبون الموج، ودائماً يُستفاد منهم حتّى الرمق الأخير، ثمّ يُطرحون جانباً مع مجموعة مقتنياهم من أوسمة الاحتقار.

أمّا الذين منّ الله عليهم بالكرامة، فهم مصابون دائماً بكرامتهم. عليهم أن يتحمّلوا جور البلاد والعباد، ثمّ عليهم أن يبقوا وحيدين في ساحة المواجهة، ويقدّموا كلّ طاقاهم من أجل بلاد تمنح نفسها لبراغماتيّين يغرّرون بها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا!

من أجل ذلك، وغير ذلك، كان الرحيل قراري، حيث _كما أردّد دائماً_ في الأرض منأى للكريم عن الأذى. وخارج هذا المكـــان، أستطيع أن أحبَّ مدينتي، وأن أقدّم لها الكثير، مـــن دون أن تســـحقني عجلات الثرثرات، والتواطؤات، والمهاترات، الـــتي لا تتوقّـــف عـــن الدوران فيها.

لن أضرب صفحاً عمّا قلتُ، ولكن سأزيد عليه:

أحبّ مدينتي، وأعشق كلّ ترّهاتها!

وحينما تداهمني وحشة العالم أعود إليها، وألوذ بها مـــن كـــلّ خوف وهمّ. أتجوّل في دروبها الضيّقة، وأهمس:

يا زواريب حارتي خبّئيني بين جفنيكِ، فالزمان ضنينُ

ألوذ بألعاب طفولتي، وبرفاقها، ببيوت الحـــارة، بأحاديـــث الجـــدّات والعمّات، بمضافة أهلي، وبمناسف اللّحم فيها صبيحة العيد، وبعبـــث الأولاد، ومقالب الشباب بالشيّاب، بالجسر العتيق المستلقي على النهر، باللّقّاحي والموليّا:

لاكتبْ وادزْ بالورق لحْميدَ لعْجيـــلي

هالريمةَ لْعنـــدِكُم من سبّقَ الخيل

مشروبها من عسل وماكولها حْنينهْ

وملبوســـــها من هباري الدير وشـــاليّه

كلّ ذلك جال في نفسي، وأنا أتمشّى محاذية "الـزلّ"، علـى شاطئ النهر، مساء يوم حزين من أيّام تلك الزيارة، عرفتُ فيـه مـا عرفتُ من أخبار:

صديقة من صديقات طفولتي أُصيبت بسرطان الثدي، وشـابّة أخرى، قريبة لي، أُصيبت به أيضاً! فكّرتُ: كم مـن النـاس الـذين أعرفهم، في هذه المدينة تحديداً، التي لا يتجاوز عدد سكّانها ثلاثمئة ألف نسمة، أعرف أنّهم مصابون بالمرض الخبيث؟ ومن دون الرجـوع إلى إحصائيّات مديريّة الصحّة، أحصيتُ ثلاثين حالة سرطان، ضمن دائرة معارفي التي قد تبلغ خمسمئة شخص! يعني النسبة تقريباً ستّة بالمئة، إنّها نسبة مرتفعة! وقد حسبتها في آخر سنتين فقط، فكم سـتكون نسـبة الإصابة عامّةً؟

حدّثتُ في هذا الأمر صديقاً قديماً، جاء ليسلّم عليّ، يعمـل في إدارة البيئة، فأسرّ لي بأنّه منذ سنوات، تردّدت إشاعات حول مكـان على بعد عشرين كيلو مترا تقريباً من المدينة، أُعلن منطقة مغلقة، ومنع الاقتراب منه، وقد تردّد أنّ مخلّفات ما، دُفنت فيه، ولكن حتّى مكتب البيئة لا يجرؤ على السؤال عن الموضوع، ذلك أنّ الصفقة أتمّها متنفّذون على مستوى رفيع.

جُنّ جنوني! مدينتي صارت مقبرة لمخلّفات...

المرض والموت يعيشان معنا! لماذا نحن؟ ألأنّنا طيّبون في مدينة نائية! أيجرؤ أحد على دفن مثل تلك المخلّفات قرب العاصمة، أو قرب مدينة أخرى؟

هذا ما جناه أهل مدينتي من إكرام الغريب!

*****

حينما بدأ القمر يُسفر عن وجهه اجتاحني الحنين إليك، ولمّا وصلت البيت، فتحت بريدي الإلكترونيّ، فلم أجد أيّ "إي ميل" منكَ، أتراكَ يئست!

قرّرتُ أنّه بمجرّد وصولي "حلب" غداً سأراك، وذلك قبل أن ألتقي "أيوبة".

ـ ١٠ ـ

اكتشفتُ أنّني أعرف الكتابة عن أيّ شيء أكثر من الكتابة عن قصّة حبّ، فقصص الحبّ خُلقت لتُعاش، لا لتُحكى! ودائماً أشعر أنّني غير مهيّأة لأحكي عنك، ربّما لأنّ وحشةَ نهايةٍ ما تطالعني قبل أن نبدأ! في مكتبك الذي يعجّ بالوافدين، بل بالوافدات، لا يجد المرء مكاناً ليجلس، أكلّ أولئكَ جئنَ ينهلنَ من وِرد الثقافة الفرنسيّة، أم من وِردكِ أنت؟!

لا ألومهن، فالذي يرى القبّة يحسبها مزاراً! لا.. إنّني أمزح فحسب!

على الرغم من يقيني أنّني أحتلّ مكاناً مميّزاً في قلبك، فإنّني حتّى اللّحظة، لا أملك الدوافع الكافية لاستثماره، ربّما لأنّني قرّرت أن

أكون هناك، وكلّ محاولاتك لإقناعي بالعودة، والتي انقلبت منذ حين إلى رجاءات، لن تجدي نفعاً.

ليست هي المرّة الأولى التي أصمّم فيها على خيار يخالف أهلي ورغباتي، لقد وطّنتُ نفسي على ذلك، وفي كلّ مرّة تزداد [illegible] ها، وقهر رغبتها في العبث، فأعود من جديد، تلك المرأة [illegible]، التي تتجنّب المنعطفات، ولا أخفيكَ أنّ فضلاً كبيراً في ذلك يعود للآخرين، وهذه المرّة صاحبة الفضل هي "أيّوبة"، التي التفتُّ إليها لتشغل وقتاً كدتَ تمتلكه جميعاً، وشيئاً فشيئاً، سرقتْ "أيّوبة" الوقت كلّه، وتحوّلتْ إلى حدث هامّ في حياتي، يحاول التغلّب عليك، فبها سأخرج برواية، أمّا معك، فربّما لن أخرج أبداً!

*****

كان غداءً لطيفاً!

ولكن، كلّما تجاوز لقاؤنا الساعة وبضعها، يبدأ شعور ما بالملل أو الفتور يتسلّل إلى الجلسة، هذا ما أجده أنا. لستَ مملاً، لكنّك تفقد القدرة على إدهاشي بعد أوّل ساعة. العيب فيّ أنا، أنا التي تمتصّ الآخر بسرعة حتّى تستنفده، وهذا سبب التقلّبات المستمرّة في حياتي. لا أنكر أنّني أشتاق إليك كثيراً كثيراً، وذلك بمجرّد أن نفترق، ولكن حينما

نلتقي أجد ـ بصراحة ـ حلاوة اللّقاء دون حلاوة الشوق الذي كنتُ أعيش. ألم يقل الشاعر في ذلك:

يموت الهوى منّي إذا ما لقيتها ويحيا إذا فارقتها، فيعودُ!

لكن، إذا أردت أن تملك قلبي حقّاً، فإليك الشيفرة:

احتفظ بقدرتك المستمرّة على الإدهاش.

ـ ١١ ـ

هذه المرّة، أستعجل الوصول إلى "عمّان"، لأعاود حالة الاستقرار، والكتابة بهدوء، ولأستذكر الأشياء بعيداً عن الضغوط المباشرة التي يمارسها عليّ المكان وموجوداته هناك في "حلب". وعلى الحدود، حيث "عمّان" على مرمى عصا، أعود فأكتشف بأنّني "الطليق الذي قيّدته رسائل"!

طالت الوقفة على الحدود هذه المرّة، ففي حين قدّرتُ أنّنا في الخامسة فجراً سنكون في "عمّان"، فإذا بنا ما نزال على الحدود، وقد رُفع أذان الفجر، وأغلقت الحدود حتّى عودة الموظّفين من الصلاة، ثمّ إنّ باصاً آخر أمامنا، سيخضع للتفتيش الكامل، مع أمتعة الركّاب الذين ستنتظر جوازات سفرهم قليلاً في غرفة الأمن، ثمّ سيأخذونها للحصول

على التأشيرة، وهذا الأمر سيطول أو سيقصر، وفاقًا لمزاج الموظّف. ثمّ سيأتي دورنا لنخضع للعمليّة ذاتها، إذن لن نصل حتّى الثامنة تقريباً، وقد بلغ منّي التعب منتهاه، لاسيّما في هذه اللّيلة الأيلوليّة، التي فاجأتنا ببرد غير متوقّعٍ.

بدأ الصغار في الباص يتململون من الانتظار، وإذ نزلوا مع ذويهم للتفتيش، دهمهم الهواء البارد من بعد دفء الباص، وأحضان الأمّهات، فَعَلا بكاءُ بعضهم، وسؤال آخرين، أنْ متى نصل، والأهل ينهرون بتململ وعصبيّة، محاولين فكّ أسر عيونهم المقيّدة بأصفاد النوم. أنزلنا كلّ الأمتعة، وفتحناها بانتظار موظّف الجمارك، الذي طالت صلاته. في هذه الأثناء، علا صراخ إحداهنّ، يبدو أنّه المخاض! يا إلهي، لتُمضِ هذه الرحلة على خير!

كان التعب، والملل، والحنق، قد بلغت منّي كلّ مبلغ، وجاء مخاض هذه المسكينة ليزيدني ضغينة، شتمتُ الحدود في نفسي، وشتمتني على ما اتّخذت من قرارات فدائيّة!

التفّت النسوة حولها، وزوجها مسكين، مكتوف اليدين:

ـ تماسكي، كدنا نصل، إنّه تعب السفر، ليس إلاّ.

وعلا اللّغط، وتململ الجميع، واحتجّوا، بعضهم شتم، أمّا

الموظّفون فكانوا واقفين وراء مكاتبهم، ومع ذلك يرفعون لوحة: مغلق للصلاة!

في تلك اللّحظات، تبيّنا الخيط الأبيض من الأسود، فبدا أمامنا على بعد أمتار كلب، كلب أبيض من تلك الكلاب التي تعيش في البريّة، وعلى الطرقات المقطوعة. راح الجميع يراقبون المشهد بصمت أطبق عليهم فجأة. مرّ الكلب عبر الحاجز الحدوديّ بكلّ هدوء، وتبعته كلبة، وبقينا نحن على الحدود ساعتين أخريين!

* * * * *

في اللّيلة التالية جفاني النوم. لا يمكن للمرء أن يتجوّل، ولو بسيّارته، في "عمّان"، في هذا الوقت المتأخّر، فـ "عمّان" مدينة تنام باكراً، وتستيقظ باكراً، ليست مثل "حلب"، نؤوم الضحى، التي يكاد البطر يصرعها!

لم ينتظم عملي بعد، لذا قرّرت أن أستثمر أيّامي هذه في الانقطاع للكتابة، عليّ أن أنجز قدراً مقنعاً من رواياتي، قبل أن يداهمني الدوام وروتينه. وعلى الرغم من أنّ كتابة اللّيل لا تروقني كثيراً، أخرجتُ قصاصاتي، واستحضرتُ ذاكرتي، وملكتي السرديّة، وبدأت...

ـ١٢ـ

تكرّرت لقاءاتي و"أيّوبة" في غرفتها في جامع "العادليّة"، وذات لقاء، قالت "أيّوبة":

إنّ أوّل صورة أعيها في حياتي هي صورة أمّي، في مشـــهد لا يكاد يغيب عن خاطري، مشهد من المشاهد القليلة التي أتذكّرها عـــن طفولتي:

في غرفة الجلوس، كانت أمّي تكوي قمصان أبي، وكنتُ ألعب حولها، كانت تعاني من آلام الظهر:

ـ أمّي، هل يؤلمكِ ظهرك؟

ـ قليلاً...

ويدخل أبي كالضبع، كان مجرّد وجوده في المنزل يجعل الجميع

في حالة توتّر، صامت، وغاضب بلا سبب، يدخل بثيابه الداخليّة:

ـ أين القميص الأزرق؟

ـ في الغسيل، لم تطلبه منّي، طلبتَ هذا المقلّم!

وأضع إصبعي في أذني، وأنكمش في الزاوية تأهّباً للمعركة، قلبي يرتجف، وأبدأ بالبكاء...

سينفجر أبي الآن:

ـ أنتِ لا تفهمين، أنا عندي في هذا البيت حيوانات، لم تتعلّمي بعد!

وتتسمّر أمّي في مكانها، ثمّ تنفجر باكية، ينتر منها القميص بشدّة، فتسقط طاولة "الكوي"، وتسقط أمّي على الأريكة، فأركض إليها:

ـ ماما، أرجوكِ لا تبكي، خلص، راح...

* * * * *

كانت أمّي جميلة جدّاً، الجميع يقول إنّها جميلة، وستّ بيت، ومطيعة، لكنّ أبي لا يحبّها، لا يحبّها كما يحبّ الرجال النساء في التلفزيون! فيما بعد، أدركتُ أنّ المرأة تحتاج إلى أشياء أخرى كي يحبّها زوجها، غير جمال أمّي، وطاعتها، فقلب الرجل مربوط بأشياء أخرى. مسكينة أمّي حقّاً!

دائماً يأتي أبي إلى البيت وهو غاضب، لا أتذكّر في حياتي أنّني استقبلته من الباب، وأنّه ضمّني، كما يفعل والد "هبة"، جارتي وصديقتي، ودائماً كان رأسه يؤلمه، ولا يحتمل كلمة من أحد. ينام في غرفة، ونحن وأمّي في غرفة أخرى، وكنتُ دائماً أتساءل: لم لا ينامان في غرفة واحدة كما في المسلسل؟

المدرسة كانت ملاذي الوحيد، أذهب فأرى رفاقي، ومعلّماتي، ولكنّ أمّي المسكينة لا تذهب، تبقى في البيت، ويكون بالي معها باستمرار، ترى ماذا تفعل؟ هل جاء أبي وخلق لها مشكلة؟ هل...؟

في المدرسة، كنتُ أحبّ أن ألعب مع الجميع، وكنتُ نشيطة جدّاً، وكأنّ طاقاتي المكبوتة في المنزل كانت تتفجّر في المدرسة، كنتُ أحبّ أن أقترب من الصبية، أن أكتشف عالمهم، كانوا لطفاء، لاسيّما "عليّ"، كان لطيفاً جدّاً، ونظيفاً، وجميلاً! كنتُ أستبعد أنّه عندما

سيكبر سيكون مثل أبي! لا، فـ "عليّ" أستطيع الاقتراب منه، ومحادثته، والمزاح معه، بل إنّني أطلب منه أغراضه أحياناً، وبلا حرج. لم يكن يعصّب أو ينفر، بل كان يبتسم، لكنّ "هبة" كانت تقول بأنّ عَلَيَّ ألاّ أتكلّم معه، وألاّ أقترب منه، أو من باقي الصبيان، عيب، نحن بنات، وهم صبيان، عيب، وحرام أيضاً، اللّه سيحرقنا بالنار!

كنتُ أفكّر في أنّ "عليّ" مثلي، لا أشعر بفرق بيني وبينه، حتّى كونه صبيّاً وكوني بنتاً لم يكن يعني لي شيئاً، إلاّ عندما كانت "هبة" تتكلّم:

"بابا وماما يقولان: الأولاد أشرار، يضربون البنات، ويؤذونهن، ويتكلّمون عليهنّ بأنّهنّ سيّئات وغبيّات. وإذا ما تكلّمنا مع الصبيان، أو وقفنا معهم، فإنّ الناس سيقولون إنّ أهلنا لم يربّونا، وإذا ما تكلّم الناس علينا، سيعرف أهلنا، وسيضربوننا، وكذلك لن يأتي أحد ليتزوّجنا، لأنّ سمعتنا ستكون سيّئة. إنّني أتكلّم من أجلك، حتّى اسألي أمّك...".

* * * * *

كان أبي يعاني ضغوطات في العمل، وكان يفجّر كلّ ضغوطاته في وجه أمّي، هل ستحتمل أمّي كلّ ذلك؟

ـ آه يا بنتي! لولاك وأخواتك لما قعدت دقيقة، ولكن ماذا أفعل؟ إنّنا بحاجة إليه، لو كنتُ أكملتُ تعليمي وعملت لما سألت عنه، هذه قسمتي ونصيبي. غداً تكبرن وتصرن لي ظهراً، ادرسن واجتهدن، ولا أريد شيئاً.

قرّرتُ أن أدرس من أجل أمّي، كلّ يوم كنت أحلم، وأخطّط لمستقبلي، أتخيّل نفسي شخصاً ناجحاً، عاملاً، آتي بالنقود لأمّي وأخواتي، سأجعل أبي يفخر بي أمام الناس، وسأشتري له الهدايا، سيندم ويبكي، وسيصبح شخصاً جيّداً عطوفاً على أمّي، وسنعيش بسعادة...

تلك كانت أفكاري، أو خيالاتي كلّ ليلة، وبعدها أقرأ المعوّذات، وما أحفظ من سور، وأدعو اللّه أن تتحقّق أحلامي، وأنام.

ليس لدينا ولد ذكر:

كنّا بنات خمساً، لا ذكَر بيننا سوى والدي، كان الديكَ الوحيد، وكان الأمر يؤرّقه. معه نقود، ولطالما هدّد أمّي بالزواج. ماذا يعني أن يكون لنا أخ! الأخ ليس شيئاً جيّداً، هكذا تقول رفيقاتي في المدرسة. الأخ يضرب، ويأمر، ويتدخّل في كلّ شيء، وله كلّ الامتياز. لكنّ الأمر كان يؤلم أبي، لا أعرف لماذا! أمّي تقول بأنّه يريد ولداً ليخلفه. بعد أن يموت المرء لن ينفعه لا ذكر ولا أنثى، كنت أجد أنّ نظريّتها صحيحة، أصْمِت.

ما الفرق بين الصبيّ والبنت؟ شعرها طويل، وشعره قصير. البنت أجمل، وعندها أشياء كثيرة جميلة، أثواب، وأدوات زينة، وأصباغ، الصبيّ ماذا عنده! البنت عندما تكبر تصبح عروساً، ترتدي فستاناً أبيض، وتصير حاملاً أيضاً. الصبيّ لا يصبح شيئاً، بل يذهب إلى العسكريّة، الحمد لله أنّني بنت!

ولكنّ أبي يريد الولد، وأمّي تقول: ليتزوّج، فربّما نخلص منه، ثمّ تبكي...

أمّي لم تكن تتحدّث عنه بسوء، كانت مهذّبة جدّاً، لكنّه لا يستحق.

فيروز:

حينما كنت أسمع "فيروز" في الصباحات، في طريقي إلى المدرسة، عبر راديوهات الدكاكين، أو المنازل، أو حتّى في بيتي، كنتُ أشعر أنّ ثمّة أشياء جميلة في الحياة، وتستحقّ أن تُعاش. كانت أغانيها تتلبّسني، فأشعر بالانطلاق في أحضان العالم الرحب، وأنّني أُخلق من جديد، وأنّ عينيّ تتألّقان طاقة وحبّاً. متى سأكبر لأعيش ما تغنّيه "فيروز"!

أنا و"عليّ":

لم أكن بحاجة إلى أن أكبر لأعيش، حقّاً لقد عشت ذلك في مرحلة مبكّرة. ثمّة شيء في الإنسان لا يحتاج إلى عمر معيّن، أو تعليم معيّن، ثمّة رعشة في القلب، ورغبة في الحلم، والمكوث مع شخص...

"عليّ" رفيقي في المدرسة، وجارنا في الحارة. بدأ شيء ينتابني كلّما رأيته، شيء جميل فعلاً. كان لطيفاً، وودوداً، وممتلئاً بالمحبّة. أحترمه جدّاً، وكلّما رأيته شعرت بحاجتي لمعانقته، فتخضلّ عيناي بالدموع، وأفتح ذراعيّ للحياة. ومن دون أيّة كلمة كان "عليّ" يشعر بما فيّ، يجلس معي في الفرصة، وأحياناً نعود معاً من المدرسة. "هبة" كانت تخاصمني من أجل ذلك، ولم تكن تمشي معنا، كنت دائماً أشعر بأنّها على صواب، وبأنّني المخطئة، ومع ذلك كنت أحبّ المشي مع "عليّ"، حتّى ولو أنّنا لا نتكلّم ولا كلمة!

لطالما لعبنا في الحارة، ركضنا، اختبأنا. كنت أعيش في الحارة، وفي المدرسة أسعد أوقاتي، لم أكن أتمنّى أن أرجع إلى البيت، وقت المغرب كان وقت دفني، أعود قبل عودة أبي، ليُغلقَ باب السجن عليّ من جديد، ولأدخل ذلك السجن إلى الأبد في العام المقبل:

كنّا نلعب كعهدنا، ما نزال أطفالاً، أعجبتنا لعبة قرع الأبواب

والاختباء. "عليّ" وأنا، وغيرنا من الأطفال، كنّا نطرق الباب، ونختبئ خلف السيّارات، أو في الزواريب، وفجأة تمسكنا إحدى الجارات، لا سامحها الله، وتجرّني من يدي إلى أبي المقبل من أوّل الدرب:

"تعال يا سيّد، تفضّل، بدينك أليس عيباً! ابنتك صارت صبيّة، زوّجها تتزوّج، وما تزال تركض في الشوارع، وتلعب مع الصبيان! تربية آخر زمان، بس ما في شرف، ما في ناموس، اللّواتي مثلها الآن مستورات في البيوت، وهي مفرعة، سفور، وقد صارت مَرَة، ألا تخاف عليها؟ يعني إذا لم تعمل لك فضيحة لن ترتاح..."

وفتحت تلك الحقيرة علينا باب جهنّم...

من شعري جرّني أبي، أمام "عليّ"، وأمام الجميع، أردت أن أداري الموضوع، لكنّني كنت أرتجف، وأنشج، كنت أتألّم من الخجل، تمنّيت لو أنّ الأرض انشقّت وابتلعتني. ثمّ لم أعد أحمل همّي، بل همّ أمّي المسكينة، كم سأسبّب لها من الأذى في ثورة أبي هذه!

ــ يعني تريدينني أن أقعد ناطوراً لك ولبناتك في البيت! إذا لم تعرفي كيف تربّيهنّ، سأربّيهنّ أنا وأربّيك! بنت صبيّة تتركينها تلعب في الشوارع حتّى المغرب!

وبهدوء أمّي المعتاد، هدوئها الذي يكتنز بالخوف والألم، كانت تقول:

ـ البنت ما تزال صغيرة، إنّها تلعب مع رفاقها، خلّها، لاحقة على الهمّ!

وتثور ثائرته من جديد، ليصبح كثور يهجم علينا، كم هي قبيحة ملامح وجهه! تكاد عيناه تخرجان من محجريهما، وكذلك أنفه، وفمه. أكرهه...

ويهجم على أمّي، فتركض خارج الغرفة، ونختبئ نحن بعيداً عن نظره، ويعود إلى الصراخ:

ـ اسمعي: من بكرة، مدرسة ما في، وإلاّ واللّه العظيم... تقعد لتنتظر نصيبها.

يا ربّ! سأفعل كلّ ما يريد، بس ليسكت، ليهدأ. ويخفت الصوت رويداً رويداً، وبعد حين، أصحو على مأساتي:

ستمسي دنياي بلا مدرسة، بلا شارع، بلا "عليّ"، وبلا أصدقائي، واللّه حرام! ويختنق حلقي بالدمع.

أرجوك يا اللّه! اجعله مجرّد كابوس، لا تجعله حقيقة!

احترق قلبي حينها، لم أستطع أن أتخيّل نفسي أنّني سأهض في الصباح من دون أن أرتدي ملابسي، وأمشّط شعري، وأذهب إلى المدرسة. لم أنم ليلتها، كنتُ أبكي، وكانت أمّي تبكي، وتقول:

ـ معليش يا بنتي! غيمة وتزول، غداً يهدأ، ويغيّر رأيه، أبوك

قلبه طيّب، لكنّه يتوتّر في العمل، ويعصّب!

ـ كلّه بسبب جارتنا، اللّه لا يسامحها!

أقولها بقلب محروق، وبصوت باكٍ، وأزيد من إظهار الألم كي ترأف أمّي بي عسى أن تصنع شيئاً، مع أنّني أعرف تماماً أنّ لا حول لها ولا قوّة!

في اليوم التالي لا أنهض من الفراش، أستسلم لظرفي، وأنتظر ما سيأتي..

كنتُ أفكّر: إنّهم الآن في المدرسة. الآن خرجوا إلى الفرصة. الآن هم في درس الحساب. حان وقت درس الجغرافيا...

كلّ شيء في المدرسة جميل! حتّى وطأة الوظائف والامتحانات أصبحت محبّبة، وكذلك عقاب المدرّسات! ثمّ أنفض كلّ تلك الأفكار من رأسي، وأقضي الوقت في البكاء.

بعد الدوام، تأتي "هبة" لزيارتي، لم تعتد غيابي، أسمع صوتها، فترتدّ لي الروح، أقفز بسرور، تسألني، فأحكي لها، تقول:

ـ يجب أن تكوني سعيدة لأنّك تركت المدرسة، أنا أيضاً يمكن أهلي يبطلوني، إذا مو السنة، السنة الجاية، ياريت يبطلوني اليوم، لنخلص من هالصرعة!

ـ لكن أنا لا أريد ترك المدرسة، أنا أحبّ الدراسة، أريد أن أدرس وأدخل الجامعة، وأتخرّج وأشتغل. أقول بنفَس محروق. ثمّ أفطن إلى شيء، شيء يعاود إشعال وجعي من جديد، فترتسم أمام عينيّ صورة تلك المرأة التي رأيتها في السوق، كانت جميلة، تمشي بثقة، تتكلّم، تناقش، تشتري، وترتدي لباساً أنيقاً، كان شعرها جميلاً. أنا أيضاً لي شعر جميل، وأبدأ بتحسّس شعري، أفرده، وأعاود النحيب، وأنا أقول لـ"هبة":

ـ بس أنا لا أريد أن أتغطّى الآن، ما أزال صغيرة، كلّ البنات اللّواتي في مثل عمري بلا غطاء! لن أستطيع اللّعب في الشارع!

ـ بالعكس، عليك أن تفرحي كثيراً! أنا أتمنّى أن يغطّيني أهلي الآن، يقولون أيضاً إنّني ما زلت صغيرة. تتغطّين فتصبحين كالكبار، نيّالك! كلّ الناس سيرونك كبيرة، ستلبسين مثل أمّك، وسيأتي الناس ليخطبوك!

ـ لكن أنا لا أريد أن أكون مثل أمّي، أبداً، لا أريد مثل أمّي، لا أريد.

ويزداد بكائي، وترتسم صورتان للمقارنة، في كلّ عين صورة، صورة أمّي المسكينة في عين، وصورة تلك المرأة القويّة في العين الأخرى.

أهدأ قليلاً، وأسأل "هبة":

ـ ماذا فعلتم اليوم في المدرسة؟

ـ مثل كل يوم. درسنا، ولعبنا. وسألوا عنك.

ـ من؟

ـ المعلّمة، والبنات كلّهنّ.

ـ ماذا قلت لهنّ؟

ـ "عليّ" قال إنّ أباك ضربك لأنّك كنت تلعبين.

ـ "عليّ" قال هذا! قلت بانكسار مفاجئ.

ـ نعم. وقال أيضاً، إنّك بتستاهلي تاكلي قتلة لأنّك كنت تدقّين الأبواب، وتهربين.

ـ وهو كان معي!

ـ لا أدري، لكن قلت لك مئة مرّة لا تلعبي مع الأولاد، لا يأتي من ورائهم سوى المشاكل.

ـ لكن "عليّ" كويّس، ولا يمكن أن يقول ذلك!

ـ ما في حدا كويّس، كلّهم مثل بعضهم، يتكلّمون على البنات. أرأيت! بسببه صار لك ما صار!

وتتساقط أمامي صور المدرسة، تهوي من فوق إلى القعر، وصورة "عليّ"، والصحبة الجميلة، كلّ ذلك كان يهوي، ليلفّني الدمع

من جديد، وأبقى وحدي في غرفة مغلقة، ذهني فارغ من كلّ شـــيء، كما هي حياتي أيضاً.

صورتي الجديدة:

بدأت أتآلف مع حياتي الجديدة. مرّ زمن لم أفكّر فيه حتّى بمجرّد ماذا يوجد وراء الباب. التلفزيون صار عالمي الوحيد، كان كلّ شيء عن خبرتي في الحياة، التلفزيون، وسنوات قليلة قضيتها طفلة وتلميذة.

اقترب العيد، فصدر الإذن بالخروج لشراء ثياب جديدة. فكرة العيد سرّتني شيئاً ما. ارتديت ثيابي متأهّبة للخروج، وحينما كنت أمام المرآة أمشّط خصلات شعري، فتحت أمّي الباب، خطت خطوتين، وألقت عليّ غطاء رأس ملوّناً، كان لها، أتذكّره جيّداً، تهاوى الغطاء على الأرض، انحنيت والتقطته، ثمّ بجمود، ودونما أيّ تعبير بدأت وضْعَه.

لم أشعر بنفسي إلاّ وأنا مع أمّي في الشارع، وشيء غريب بدأ يصبح جزءاً منّي، كنت أتلمّسه بين كلّ خطوتين والثالثة، أعدّل وضعه، أشدّه، وكانت أمّي تمسكني بيدها، فأتوقّف بين الحين والآخر لأفلت يدها، وأعدّله بيديّ الاثنتين، حتّى ضاقت ذرعاً بي، ونهرتني.

كنت قد قرّرت ألاّ ألتفت باتّجاه بيت أحد من رفاقي، تناسيتهم تماماً، حتّى "عليّ" كرهته بعدما سمعت ما نقلته "هبة" إليّ.

مضيت مع أمّي لا ألوي على شيء، كنت أتعثّر في مشيتي، ذلك أنّي طوال الطريق كنت أدفع الحصى والأشياء بقدمي، أو ألوي ساقي أثناء المشي، فتجرّني أمّي.

في السوق، تجوّلنا أمام واجهات المحلاّت، لم يكن شيء يجذبني، كنت خجلة، أو مرتبكة، لا أنظر في العيون، ولا على الأشياء. أمام إحدى الواجهات توقّفت أمّي، هي أيضاً لم تكن تسألني رأيي في شيء. لم يخرجني من وجومي سوى قرع طبول ونفخ أبواق، التفتّ إلى مصدر الصوت، فإذ بثلّة من الشباب والصبايا أمام كنيسة مجاورة، يعزفون، يبدو كأنّه احتفال دينيّ، كانوا يرتدون ملابس جميلة، ويحتفلون، وبعضهم يتحاور مع بعضهم الآخر. وقفت أحملق فيهم، كانوا سعداء! الجميع كان يضحك، باستثنائي، أنا وحدي، وهم معا. شعرت بشرخ كبير بين صورتي وصورهم، وكأنّنا نصفا مرآة محطّمة، وأثناء تحطّمها كانت حواسّي قد علقت بساقين عاريتين عجيبتين! كنت قد تركت يد أمّي، والتفتّ بكلّيّتي نحوهما، ساقان سمراوان، عضلاتهما نائتة، صعدت بعينيّ إلى أعلى، إلى الركبتين، فأعلى حتّى الجذع، ليفاجئني الصدر الواسع، والكتفان العريضتان لفتى في غاية الروعة يضرب على الطبل.

حملقت فيه طويلاً، لكنّه لم يلتفت إلى وجودي، و لم يأبه لحرارة نظراتي التي كانت تحرق عينيّ وحدي. أحسست بضآلتي، بأنّني

شخص مسحوق، بل لست شخصاً على الإطلاق. أردت أن أسـوّي شعري، فاصطدمت كفّي بغطاء الرأس، عدّلته، ومضيت مع أمّي...

حوار مع جارتنا "أوديت":

"أوديت" كانت جارتنا في الحارة، امرأة ستّينيّة، عانس، كانت محبوبة من قبل الجميع، قويّة، تمون على الكلّ، كنّا نشعر أنّها بركة في الحارة، تحكي لنا الحكايات، وتطبخ طبخات غريبة علينا، ولذيذة! جيوبها دائماً ممتلئة بالسكاكر. حتّى أبي كان يحبّها، أخالها الوحيدة التي تستطيع أن تتكلّم معه، كان يسمعها دائماً، ويصمت عندما تقرّعه أحياناً. المرّات القليلة التي أراه يضحك فيها كانت حينما تزورنا "أوديت".

أمّي شكت لـ "أوديت". أخبرها بما فعله أبي، كيف منعني عن المدرسة، وأمرني بوضع الإيشارب. حزنت "أوديت"، ولكنّها غضبت أكثر، وشتمت أبي بلفظة بشعة، وقالت: الحرامي يقول يا بيتي، والزاني يقول يا مرتي! لم أدرك معنى قولها، لكنّني عرفت أنّها شتيمة تمسّ العرض. أطرقت أمّي بانكسار شديد، ونظرت إليّ، أطرقت أنا أيضاً.

عرفت أنّ "أوديت" ستكلّمه، لذلك هربت من الجلسة حينما انضمّ إليها، ورحت أسترق السمع من وراء الباب، لأعرف ما الذي ستفضي إليه المفاوضات.

كلّمته "أوديت"، نهرته، قالت له:

ـ البنت ما تزال صغيرة، لماذا أخرجتها من المدرسة؟ غداً أنت ستموت، إذا هي لم تتعلّم، من أين ستعيش؟ أتريدها أن تشحد! ما حدا ضامن عمره.

قال بلا اهتمام:

ـ تقعد لتنضبّ في بيت زوجها.

ـ هل تضمن زواجها؟ هذه أنا، انظر إليّ، لولا أنّني موظّفة لمتّ جوعاً، ولجرّتني الكلاب، ولما سأل أحدٌ عنّي.

ـ إيه انتبهي حجّة، أنت شيء، وابنتي شيء آخر! وأطلق ضحكة أثارت حنق "أوديت":

ـ ولك يا بندوق، تريد أن تدفن البنت في الحياة، طفلة ما تزال، لا تحرمها، اتركها لتعيش طفولتها: لا تذهبي إلى المدرسة، لا تخرجي، ضعي على رأسك... حرام! هذه الأمور لا تكون غصباً، فهمنا، زوجتك جننتها وصارت كالهبلة، وابنتك أيضاً!

اسألها إذا ما كانت ترغب بالأشياء، أم لا.

ـ عيب، لازم تتغطّى، وحرام.

ـ حرام! يا زلمة حرام عليك! ربّك رحمن رحيم، ثمّ إنّها لم تبلغ بعد، الآن اسألها، وبعد البلوغ أجبرها!

ـ الأمر ليس تريد أو لا تريد، أنتم حينما تعرّون الولد الصغير بالزلط، وترمونه في جرن الماء، كنتم قد سألتموه رأيه! ثمّ هل سألك أبوك والطّائفة رأيك حينما حرّوك من الـ...

وابتلع الكلام بضحكة ساخرة:

ـ هه، قال: اسألها! بدأت تخرّفين يا "أوديت"!

ـ الكلام معك كالكلام مع الحائط.

ويغلق هذا النقاش إلى الأبد، لم أكن أحتاجه أصلاً، فقد استسلمت لوضعي، لذلك لم يؤثّر فيّ قرار أبي الأخير، وإنّما الذي همّني كان زعل "أوديت". خرجت إليها، لم أتكلّم، هي التي تكلّمت:

ـ معليش يا بنتي! هكذا هو عقله، ماذا سنفعل؟ اللّه يعوّضك، ما تزال الحياة أمامك، لكنّ أمّك المسكينة كتب عليها الشقاء.

كان قد لفتني حديث أبي معها حول الاختيار والتعميد، قلت:

ـ يمكن عندكم أحسن، أليس كذلك؟ البنات يلبسن كما يردن، ويذهبن إلى المدرسة، هنّ سعيدات، صحّ؟

تنهّدت "أوديت":

ـ يا بنتي، ما حدا مبسوط، كلّه مثل بعضه، عندنا وعندكم، البنات مسخّمات!

ـ لكن أنا رأيتهنّ مع الصبيان على باب الكنيسة، كانوا

يضحكون، ويدقّون...

ـ يا بنتي، لا تغرّك المظاهر، كل مِنْ على دينو، اللّه يعينو!

* * * *

في اللّيل:

كان أبي قد قتل كلّ إحساس بالأنوثة لدى أمّي. لم يكن يعدّها زوجة إلاّ من أجل أن ينسب إليها كلّ خطأ أو فشل يحصل في البيت، أو حتّى في العمل. لم يكن يطيق أن يسمع منها كلمة، حتّى مزاحها لم يكن يحتمله، ضحكاتها القليلة لا يحتملها، وحينما يتناقشان، كان صوته يعلو ليتحوّل النقاش إلى معركة حقيقيّة، مع استخفاف بآرائها. وشيئاً فشيئاً، راح اليأس يطوي كلّ معرفة، أو ثقة، أو كلام لديها، ففقدت قدرتها على العيش الطبيعيّ. أحياناً أشعر أنّها تشكّ حتّى في وجودها، فهي إمّا متوتّرة، تتكلّم، وتتحرّك، فلا تسكت أو تهدأ، وإمّا صامتة ببلاهة. حقّاً نجح في أن يجعلها بلهاء!

كنت قد نسيت، بل لم أعرف مطلقاً أنّ أمّي أنثى. لم تكن تلبس أو تتصرّف أو تتحدّث كالنساء، ولم تكن علاقتها مع أبي علاقة رجل وامرأة، حتّى إنّني أتساءل كيف حملت بنا!

أتذكّر مرّة، بل لا أنسى ذلك المشهد الذي حفر في ذهني وقلبي:

كان النوم قد جفاني في إحدى اللّيالي، ولكنّني بقيت مستلقية في الفراش، متظاهرة به، شعرت بأمّي تتسلّل رويداً رويداً

من فراشها، محاولة ألاّ تُشعر أحداً بها، كان النوم قد جفاها أيضاً. لم أكن أدري ماذا ستفعل، ولكن بحسّي الأنثويّ عرفت أنّها ستتّجه إلى الغرفة المجاورة. كانت قد فتحت إحدى الخزائن، وأخرجت ثوب نومها الأسود، كان ثوبها الوحيد الذي يُبدي شيئاً من مظاهر الأنوثة، طويلاً، بلا أكمام، مخرّماً عند البطن بحيث يبدو اللّحم من خلال ثقوب القماش، مفتوحاً من أعلى الفخذ إلى الأرض. لبسته، وتعطّرت، ومشّطت شعرها كيفما اتّفق. لا أدري لم انتابني شعور بالاشمئزاز، مختلط بالخوف؟ ثمّة شيء ما سيحصل. للحظات كرهتها، وأحسست تجاهها بالذلّة، بقيت في الفراش لا أتحرّك. ما هي إلاّ لحظات حتّى عادت أمّي كسيرة القلب والخاطر.

أيّ شعور تشعر به المرأة حين تعرف أنّها ليست مرغوبة، وممن، من زوجها، قَدَرِها!

لا يريدها، لا يحبّها، قد تكون رائحة جسدها كريهة، أو رائحة فمها! لا أدري.

قضت الليل في البكاء بعد أن رمت بثوبها الأسود الأنثويّ في الخزانة إلى الأبد.

ثورة:

كنت مع أمّي نزور بيت أقرباء، أولادهم في مثل سنّي، أو أكبر منّي قليلاً. لم أكن أنسجم معهم كثيراً، لكنّهم أقربائي. ابنهم الكبير كان يغيظني، هكذا كنت أشعر، دائماً يسعى لانتقادي وعائلتي، كان يغار منّا لأنّ لدينا مالاً، وضعنا أفضل من وضعهم. كان دائماً يسأل عن أمّي وأبي، وكيف هما معاً، ويقول بأسى مصطنع: مسكينة أمّك، مظلومة! كنت أصمت، وأتشاغل عنه.

في ذلك اليوم ردّد تلك العبارة أكثر من مرّة، ثمّ قال:

ـ يعني واللّه عيب! أبوك عنده هذه الجوهرة، وهو يروح ويجيء إلى بيت تلك الداعرة، واللّه فضحنا، بناته صبايا، وهو ما يزال جاهلاً، يعشق و...

شعرت بصدمة، لم أستوعب ما قال، لكنّني انكسرت. لا أقول إنّني لم أصدّق كلامه، لكنّني لم أكن أريد التصديق.

انصدع قلبي، وعقلي، كمن تنهار أمام عينيه حقيقة لطالما آمن بها، ثمّ في لحظة اكتشف أنّه كان واهماً.

بصوت خفيض سألته:

ـ من تقصد؟

ـ "سعاد"، موظّفة الصحّة، في الحارة المجاورة!

تذكّرت تلك المرأة، سمعت أنّ سمعتها سيّئة. حينما كانت تراني في طريق المدرسة كانت تحاول ملاطفتي، تقرصني من وجهي. لم أكن أحبّ مداعباتها تلك!

صمتُ.. قلت في نفْسي: قد يكون مدّعياً.

حينما خرج انفردتُ بأختـه، سألتها، فأكّدت لي أنّ أصدقاءه رأوا أبي خارجاً من عندها، وأنّه يتردّد عليها باستمرار، بل إنّ لأبي الكثير من العلاقات، وليست "سعاد" الأولى أو الوحيدة.

كان قلبي يتعبّأ على مهل، مع كلّ كلمة، حتّى إنّني حينما خرجت من بيت أقربائي كنت قد امتلأت حقداً، وألماً، وكرهاً، كرهاً لكلّ شيء. في تلك اللّحظة قرّرت الثورة، وفهمت، وصدّقت عبارة "أوديت": "الحرامي يقول يا بيتي، والزاني يقول يا مرتي".

إذن، علينا: شديد العقاب، وعليه: غفور رحيم!

حينما خرجت من بيت أقربائي لم أضع الإيشارب على رأسي، على الرغم من ولولة أمّي. سأمشي كما أريد، سأواجهه، سأدافع عن أمّي، أمّي المسكينة. كم تعاني هذه المرأة، كم تتحمّل! سأدافع عنها، ماذا سيفعل؟ سيقتلني، ليقتلني. كنت أبكي، لكنّني كنت قويّة، الدمعة تنحدر، لكنّها دمعة تحدّ، كانت عدائيّة العالم كلّها تنطبخ في قلبي.

انتظرت حتّى وصلنا البيت، وكلّمت أمّي، صارت ترجوني، وتقول: لا نريد مشاكل.

ـ لا عليك! أنا من سيتكلّم، وليحصل ما سيحصل...

شعرت بأنّني مقبلة على لحظة ستقلب حياتي، فقط تلك اللّحظة، سأحتمل ألمها، ثمّ سأرتاح. أصلاً لم أكن أفكّر سوى بخيانة أبي وتناقضاته، يأمرنا بالمعروف، ويأتي بالمنكر!

وجاء أبي:

كنمر صغير جريح تصدّيت له، كنت قادرة على ابتلاع العالم، وابتلاعه، ولكن حينما وقفت أمامه، خارتْ كلّ قواي ، وبدأت أبكي...

سأل:

ـ ما بك؟ لماذا تبكين؟

فجأة شعرت بحنان غريب، لكن لم يثنني ذلك الشعور، قرّرت المتابعة:

ـ لماذا تتردّد إلى بيت هذه العاهرة؟ أخجلتنا أمام الناس، كلّ الناس يقولون لي: أبوك سيّئ السمعة، وسخ.

ضربتَ لنا سمعتنا...

واستمررتُ في البكاء.

كان قد أصابه الوجوم، سكت، وكأنّه يريد أن يتأكّد من نفسه، ومن الموقف الذي هو فيه، ثمّ بدأ بالدفاع عن نفسه إلى أن انقلب إلى الهجوم:

ـ أنا حرّ، هذا بيتي، وهذه حياتي، ثمّ إنّ الناس يتكلّمون عليّ لأنّهم يغارون منّي لأنّ لديّ مالاً. ثمّ أنت أين تذهبين لتسمعي مثل هذا الكلام، ونظر إلى أمّي كأنّها السبب، وثار، أراد أن يهجم عليها ليضربها، فتصدّيت له، دفعني، فسقطت وأمّي ورائي على الأرض، احتضنتها، وبدأنا نبكي، في حين خرج هو...

كم أكره حالي حينما أبكي! لماذا كلّما حاولت الدفاع عن نفسي غلبني البكاء! فعلاً، البنات مسخّمات...

لم أعد أكلّمه، أو حتّى أراه، شعرت بأنّني لا أحتاجه، بل قادرة على الاستغناء عنه. ماذا سيفعل؟ سيطردني؟ ليطردْني، سأرحل.

صار يحاول التقرّب منّي، يطلب منّي طعاماً أو ماء، أو يسألني عن شيء. كنت أنفّذ، ثمّ أدخل غرفتي. تحاشيت وجوده، يأتي إلى البيت، فأنزوي في غرفتي، لا أجلس معه، ولا أتفرّج على التلفزيون بحضوره، وحينما يخرج أعود فأمارس حياتي مع أمّي

وأخواتي حتّى ضاق ذرعاً بمقاطعتي. وفي يوم، دخـــل إلى الغرفـــة، وتكلّم بلهجة المهدّد الآمر:

ـ غداً سيأتون لرؤيتك.

ـ١٣ـ

كانت "أيّوبة" تحكي، وأنا أصوغ روايتي بمشاعرنا معاً، وبلغتينا معاً. وحينما تحكي "أيّوبة"، تتحوّل إلى أخرى، مدهشة، مفعمة بالحكمة والنضج. تحكي من قلبها لا من ذاكرتها، تسرد كلّ شيء وكأنّها تتعمّد التزام تيّار الوعي، تُحدّث عنها، وعن الآخرين الذين تفترض أنّني أعرفهم، وتستطيع أن تأخذني معها حيث تشاء، فأروح، وأغدو، وكأنّني خرجت توّاً من بطن كتاب!

قالت "أيّوبة":

أمّي مسؤولة بشكل كبير عمّا يحدث لها ولنا. مسؤولة بسلبيّتها، بهدوئها، بطاعتها. إنّها لا تعرف كيف تتعهّر، ربّما قمع أبي عهرها، أو أنّ بيئتها كانت السبب، لا أدري! لكنّني تمنّيت لو

أنّها تطلب الطلاق، وتتزوّج بآخر يسعدها، تمنّيت ذلك من كلّ قلبي! لكنّ بيت المرأة قبرها!

في تلك المرحلة، بدأت حساسيّتي تجاه الحياة تزداد، أشياء كانت تولد في داخلي، وتتكاثر من دون أن تترجم إلى أيّة حركة خارجيّة. صرت أقف أمام المرآة وقتاً طويلاً، أتأمّل وجهي: عيناي دائماً كانتا تشعّان، ووجنتاي تلتهبان، شعري يبرق، كلّ شيء فيّ ينبض بالحياة. أمام المرآة أتحسّس بشرتي: عنقي، زنديّ... كم هي ناعمة، وصافية!

كنت بدأت أرتدي السواد، كيف لا، وقد أصبحت عروساً!

صار السواد يغطّيني: رأسي، ووجهي، وجسدي. بدت قامتي أطول، وبدا جسدي أجمل، واشتدّت حدّة بياضي أمام هذا السواد. ازددت قرباً من نفسي، وازددت عشقاً لوجهي وجسدي، وقرّرت أن أحبّ ذلك الذي ستسقط أمامه كلّ تلك الحصون السوداء.

أقف أمام المرآة، وأجرّب أن أرى وجهي من وراء المنديل، كيف أبدو! أبحث عن التفاصيل خلف القماش الأسود الذي بالكاد يعبره النور، أكاد لا أعرف نفسي، إنّني لا ألمح سوى

عينيّ اللّتين تومضان، أرفع ذلك الغطاء عن وجهي، وأستنشق الهواء، وأعود لأتأمّل فيّ. أبدأ بتعرية رأسي وجسدي، وأطلق العنان لأخيلتي...

سيأتي ذلك الأمير كما في المسلسلات، ذلك الرجل الوسيم، سيتقدّم منّي، ويرفع الأغطية برفق، كم هو دافئ ورقيق! وأستمرّ مغمضة عينيّ، وهو يعرّيني، أرتمي في حضنه، فأتعثّر بجلبابي الذي وصل ركبتيّ، وأقع...

اللّيلة الأولى:

أصحو من حلم اليقظة ذاك، لأجد نفسي أمام رجل، كان هذا هو الذي تقرّر أن يصير زوجي!

اختفى أميري، وتلاشت كلّ أحلامي ليحلّ محلّها شخص واحد، شخص يملأ عالمي كلّه، يملؤه بالطول والعرض ليسدّه تماماً. تسمّرت أمامه، قرّرت ألاّ أفعل شيئاً، تماماً كما قالوا لي: دعيه يفعل ما يشاء.

كلّ شيء قابلته بالصمت، قد يكون الرجل طيّباً، قد يكون محبّاً! صحيح أنّه لا يشبه أميري بالشكل، ولكن قد يتصرّف مثله، لا أعلم، سأستسلم، شئت أم أبيت، سأستسلم.

أخذ يخلع ملابسه، انقبضت، ونفضت عن ذهني صوراً... من أين جاءتني تلك التي قد أسمّيها وقاحة، بل حبّ فضول؟ لم أدر رأسي، أو أخفي وجهي، وإنّما رحت أراقب، وأتابع حركاته وسكناته، وصرت أتفرّج على جسده وهو يظهر قطعة قطعة، حتّى تعرّى من كلّ شيء تقريباً، يا خ خ.. ما أبشعه!

في اللّحظة التي بدأت أستوعب فيها ما أنا فيه، وجدت نفسي عارية، وانكبّ عليّ، لم أفعل شيئاً، أغلقت عينيّ، بل أغلقت كلّ حواسّي ومنافذي على العالم، ومع ذلك كان يطرق سمعي أحياناً لهاثه، وصرير السرير تحتنا، ما أثقل صدره! أكاد أختنق، و أرغب بالتقيّؤ وأنا أشعر بلعابه على جسدي، كان يمضغ ويبصق ويعضّ ككلب!

إلى الآن كنت قد قابلت كلّ شيء بالصمت، كالحطبة تماماً، لم تصدر عنّي أيّة حركة، إلاّ ما كان يدفعني هو إليها، ولكن في اللّحظة التي رفع فيها جسده الثقيل عنّي قليلاً، دفعته بوحشيّة، كأنّ مسّاً أصابني. سقط، وقفزت عن السرير إلى طرف الغرفة،

شتمني، أدركت أنّني ارتكبت خطأ أثار حنقه، حقّاً لقد غضب! صار يلاحقني، بدا كوحش، هربت، ناورته، أمسكني، صرت أدفعه، صرنا نتعارك كعدوّين، كلّ صمت سنيني انقلب مقاومة شرسة، صار أشرس منّي، الآن دفعني إلى زاوية الغرفة، حصرني فيها كصرصور، أدركت قبحه، صار قبيحاً جدّاً، جسده بدأ يظلّلني، دفعني بعنف، ثبّتني تماماً بزاوية الحائط حتّى صرت جزءاً منها، وراح يدفع نفسه عليّ، صرخت، تألّمت، وغابت روحي، وغبت...

حين صحوت، وجدت نفسي مقعّية على الأرض في تلك الزاوية، مسربلة بالدم والقيء.

حياتي:

لم يستطع أيّ أحد، أو أيّ شيء، أن يخرق جدار الصمت الذي اعتصمتُ وراءه، حتّى أنا ذاتي لم أستطع خرقه، كأنّ حالة من الخرس سيطرت عليّ تماماً. لا أتكلّم، لا أُبدي أيّ ردّ فعل، فقط أصدع لما أؤمر به، في النهار كما في اللّيل، ولكن في النهار أكون أكثر ارتياحاً لأني وحدي. بتّ أكره قدوم اللّيل، صارت وطأته ثقيلة، كانت أكثر لحظاتي بؤساً هي تلك التي أقضيها معه في الفراش.

في النهار أعمل، أنظّف البيت، وأطبخ، وفي اللّيل أستسلم له. وفي الوقت الذي يخرج فيه بعد المغرب كنت أصعد إلى السطح، وأتأمّل السماء، والأفق، والأسطحة المجاورة، والأبنية، وكثيراً ما تدمع عيناي، وأبكي...

ما زلت أحبّ العالم!

ذات مساء، صعدت كعادتي إلى السطح، وغرقت في وجومي، كان مساء الخميس، ليلة الجمعة، وكان الناس قد انفضّوا من أعمالهم بعد المغرب، ليستعدّوا لسهرة الخميس، فراح الهدوء شيئاً فشيئاً يعمّ الطرقات، إلاّ في مكان مجاور، فقد أخذت الحركة فيه تتزايد، والأصوات تعلو. اقتربتُ من مصدر الصوت حتّى وصلت الجدار الواطئ للسطح الذي يطلّ على المكان المقصود. كانت باحة واسعة للمنزل المجاور، وقد ظننته كلّ هذه الفترة مهجوراً!

الزروع الخضراء تغطّي الجدران، ورائحة الخضرة المسقيّة توّاً تملأ أنفي، ممتزجة برائحة الماء والغبار. بركة تتوسّط المكان، تُملأ على مهل، وثمّة مجموعة من الرجال ترشّ الأرض، وتمدّ البسط، وتعدّ بنشاط لجلسة ما، كأنّ المكان قد دبّت فيه الحياة توّاً!

بعد لحظات من المراقبة أدركت أنّهم جميعاً رجال، لا توجد ولا امرأة في المكان، قد تكون النساء في الداخل! لكنّني أعرف أنّ المكان مهجور، ومتأكّدة أنّه ليس لدينا جيران في هذه الجهة!

فطنتُ إلى نفسي أنّني بلا حجاب، فارتددتُ إلى الوراء بحركة عفويّة، انسحبت إلى مكان آخر، وشيء قد انفرج من أساريري، ربّما تفاءلت بجيراني الجدد!

أبيض_ أسود_ ملوّن:

اعتاد زوجي وجومي. يبدو أنّه يئس من إصلاح حالي، أو اقتنع بأنّني هكذا خلقت، كئيبة، أشبه بخرساء. لم يكن يخفي استياءه وغضبه، لكنّ الوسائل أعيَته: الصراخ، الضرب، الشتم، الهدوء، الإكراه على مشاركته الفراش... لكن بقيت كما يُقال: "فالج، لا تعالج"، لا أهنأ، ولا أهنّئه. أحياناً كنت أحاول الخروج من حالتي، أتكلّم قليلاً، أسأل، أبتسم، ولكن لا أصل حدّ الضحك، أو المرح، بل لا أعرف كيف أصل، أو بالأحرى لا أبذل كلّ جهدي، كنت قد سلّمت من اللّحظة الأولى، وهذا ما أصبح عادة لا أستطيع الإقلاع عنها.

طبعاً، لم أكن سعيدة، لم أكن سعيدة أبداً، ولا حاولت. حتّى هو دخل في دائرة الصمت، ويبدو أنّه لم يعد يأبه لوجودي، فلم يحاول مجدّداً أن يكلّمني حول الموضوع، أو يستميلني إليه كما كان يفعل، أو حتّى يرغمني على شيء، بل أصبح قلّما يَقربني، وكنت قد اعتدت معاشرته، اعتدتها مجرّد عادة، لا رغبة، فرغبتي كانت دائماً تعذّبني، وهذا ما زاد نفوري منه، فقد قمع رغبتي منذ وقت مبكّر: فبعد مضيّ الأسابيع الأولى، كنت بدأت أشعر بحاجتي إليه، وتحقيقاً لذلك حاولت مجاراته فيما يفعل، ظننت أنّه سيسعد بأنّني بدأت أتقبّله، فرحت معه بعفويّة، وفي لحظة غائمة.. لا أدري من أين جاءتني الصفعة على وجهي، وصاح: عاهرة!

كنت بسبب ممانعته قلّما أخرج من البيت، ولكن في الفترة الأخيرة ازداد خروجي، لم يعد يأبه، يصطحبني إلى بيت أهلي ويعيدني، من دون أن يتحدّث إلى أحد بشيء عن حياتنا، وكذلك كنت أفعل.

أخرُجُ ملفّعة بالسواد، كلّ شيء أراه أسود يتخلّله بعض نور: الشوارع، الدكاكين، الناس، حتّى هم يرونني سوداء على الأغلب. لكن كنت أعرف الرجال الوسيمين من غيرهم، أراهم من وراء منديلي، وأتفحّصهم، وأعرف أنّ هناك رجالاً يحبّون،

ويُسعِدون ويَسعدون، وأعرف أنّ هناك عشقاً متبادلاً بين الرجل والمرأة، لكنّه لم يُقَدّر لي.

الرجل الوحيد الذي كان يراني بألواني، وأراه بألوانه كان زوجي، الذي لا أحبّه، ولا يحبّني، لا أظنّ أنّه يجدني جميلة، ولا يستسيغني، لأنّني امرأة لن يكتشفني إلاّ الرجل الذي أحبّه ويحبّني، الرجل الذي أمنحه نفسي بكلّ رغبة وطواعية. إنّني أمتلك الكثير، ولكن ليس من أجل هذه الحياة.

سهرات الخميس:

مجدّداً يحين المساء، فأصعد إلى السطح، أتحوّل، أُصيخ إلى ما حولي، فلا أسمع جلبة كالتي أسمعها في كلّ مرّة. أقترب من الجدار، أمدّ رأسي بحذر، لا حركة، ولا أحد، فأجرؤ على أن أنصب قامتي، وأنظر إلى الأسفل. المكان مهجور من جديد، من كان أولئك؟ وإلى أين ذهبوا؟ وماذا كانوا يفعلون؟ أهم أصحاب الدار؟ أسئلة تستغرق لحظات من حيّز تفكيري، ثمّ تمّحي مع نزولي إلى الأسفل.

فيما بعد، لاحظت أنّ رجالاً يجتمعون في هذا المكان مساء كلّ خميس.

زوجي مساء الخميس يسهر مع صحبه. تأخّر في الخروج قليلاً إلى ما بعد صلاة العشاء، لذلك لم أصعد هذا المساء إلى السطح. جلست في باحة الدار أعدّ الأطعمة ليوم غد.

كان الهدوء يغمر الأجواء حولي، لا شيء سوى نَفَسي، وخرير نافورة الماء، وحفيف ورق الشجر، وإذ بأصوات موقّعة تتنامى إلى مسمعي ، تقترب، وتبتعد، وعلى الرغم من أنّني لم أميّزها بشكل كامل، إلاّ أنّها كانت كافية لتجعلني أهتمّ، وأصيخ السمع. أستطيع أنّ أميّز نقر دفوف، أتراه عرس في الجوار!

مضى وقت، والأصوات مستمرّة، أحياناً تكون غناء، وأحياناً أخرى تتحوّل إلى ما يشبه الموّال، تارة تعلو، وتارة تخفت، كانت أصواتاً ذكوريّة.

أهيت ما بين يديّ، و لم تنقطع الأصوات بعد. ماذا أفعل! صعدت إلى السطح لأزاول عادتي، وأتقرّى الصوت، كنت كلّما صعدت درجة يعلو الصوت ويتّضح، حتّى بدت حفلة على سطح بيتي. أدركت أنّ البيت المهجور كان مصدر الصوت، وأيّ صوت!

غناء شجيّ جدّاً. جلست على كرسيّ منخفض أستمع، وأراقب السماء. لم أقترب من الجدار، و لم أحاول النظر، فقد عرفت من النشيد أنّهم رجالٌ في جلسة ذِكْر.

اللّـــــه! ما أعذب تلك الأصوات! كانت تتسلّل مـــع نسيم اللّيل إلى قلبي، فتسري في جسدي رعشة ناعمة مثيرة، ورغماً عنّي، يتجمّع الدمع في عينيّ، ثمّ أنتقل من عذوبة الصوت والنغم إلى عذوبة الكلام. كان غزلاً رقيقاً، نعم، غزل بالحبيب، وبالمحبوبـــة، ثمّ شيء من ذكر اللّه، والرسول، ومكّة، وليلى، والخمر، والكـــأس، والعشق، والوصال، والفراق...

اقتربت أكثر من الجدار، مُلقية عليه ظهري، وهمومي كلّها، محدّقة بالسماء، أطلقت نفسي لليل، والنسيم، والنجـــوم، ولتلـــك الأصوات الساحرة:

يا خمّار زيد الخمر زيدي واسقنا من كاسك يا سيدي

اسقنا من خمرة محمّد عَبَّ الكاس واسقنا المزيدي

آ...خ، كم نفثتُ من الآهات تلك اللّيلـــة! ثمّ أرخيـــتُ جفوني وغفوتُ، أجل غفوتُ ربّما لساعة. حينما نزلت من السطح كان صوت الإنشاد ما يزال يتردّد في أذنيّ، وعالم آخر جديد كان طوال اللّيل يدعوني إليه.

من رأى ليس كمن سمع:

نهاري التالي كان سعيداً، كنت أشعر بارتياح، وكانت أساريري منفرجة، وكان كياني كلّه متجدّداً، ومشرقاً، وبين الفينة والأخرى، رحت أستذكر بعض الأبيات والأناشيد التي سمعتها، أعيد تحليلها، وأتساءل في نفسي عن بعض معانيها، وقد عجبت كيف يمكن أن يجتمع الغزل والدين في جلسة! كيف يمكن لأولئك المتديّنين أن يتفوّهوا بكلمات الحبّ! فيذكرون المرأة، واللّه، والعشق، والمقدّسات معاً! ومع ذلك كان شعور داخليّ يخبرني بتناسب تلك المذكورات بعضِها مع بعضها الآخر، فاستسلمت له، وانقضت أيّامي رتيبة ليقبل يوم الخميس.

الانخراط في أعمال المنزل كان نوعاً من السلوى، لم أدر كيف مرّ الوقت! حينما كنت أعلّق ستائر إحدى الغرف بعد أن غسلتها وكويتها، بدأ يتسلّل إلى أذني نقر الدفوف، كنت قد تلهّيت عن الموضوع، لكن الآن بدأت أسترجع شعور الغبطة الذي انتابني تلك اللّيلة. أنهيت عملي بسرعة، وارتديت حجبي السوداء، وصعدت إلى السطح:

حلقات داخل بعضها البعض من الرجال، يرتدون البياض، معظمهم من الشباب، وبعض الشيوخ والأطفال، كانوا يبدون

للناظر كعقود متداخلة من الياسمين، تبرق وجوههم تحت ضوء القمر الخافت، يصغون بصمت إلى شيخ يجلس أمامهم على مصطبة، لم يكن كبيراً، لكنّه كان مهيباً، ووسيماً، صوته هادئ، متهدّج أحياناً. المشهد كلّه يوحي بالنظافة، بالطمأنينة، تلفّه الخضرة، وتتخلّله مياه البركة، والبياض، والقمر، والأضواء الوامضة من السماء، ومن الأرض. أحياناً أتخيّل بعض مشاهد الجنّة، شيئاً من هذا القبيل!

عندما أنهى الشيخ درسه، تقدّم آخر، تربّع بجانبه، وراح يقرأ في كتاب بين يديه. كان صوته مختلفاً، أجمل، وأداؤه أقرب إلى النشيد أو الترتيل، أو لا أدري بالضبط، لكنّه كان يثيرني، فيقشعرّ جلدي، ويضطرب قلبي بين الجملة والأخرى بشيء أشبه بالحبور.

تملّكني الصوت، والحادثة التي كان يرويها نقلتني من مكاني إلى السماء، أو إلى الماضي، أو المستقبل الموعود بعد الموت:

"... وفي اللّيلة الثانية عشرة، قالت آمنة، وكانت ليلة مقمرة وليس فيها ظلام، وكان عبد المطّلب قد أخذ أولاده وانطلق نحو الحرم يصلح ما تهدّم من جدرانه، ولم يبق عندي أحد لا أنثى ولا ذكر، فبكيت على وحدتي، وقلت: وا وحدتاه! لا امرأة تعضدني، ولا خلّ يؤانسني، ولا جارية تسندني. قالت آمنة، ثمّ نظرتُ إلى ركن المنزل، فإذا هو قد انشقّ، وخرج منه أربع نسوة

كأنهنّ الأقمار، وقد غشيتها الأنوار، متأزّرات بأزر بيض، يفوح المسك من أرديتهنّ، كأنهنّ من بنات عبد مناف. فتقدّمت الأولى منهنّ وقالت: من مثلك يا آمنة، وقد حملت بسيّد البشر، وفخر ربيعة ومضر، ثمّ جلست عن يميني، فقلت لها من أنت؟ قالت: أنا حوّاء أمّ البشر، رضي الله عنها. ثمّ تقدّمت الثانية منهنّ وقالت: من مثلك يا آمنة، وقد حملت بالطهر الطاهر، والعلم الزاهر، والبحر الزاخر، والنور الباهر، والسرّ الظاهر، ثمّ جلست عن شمالي، فقلت لها من أنت؟ قالت: أنا سارة امرأة الخليل، رضي الله عنها، ثمّ تقدّمت الثالثة منهنّ، وقالت: من مثلك يا آمنة، وقد حملت بالحبيب الأسنى، صاحب المدح والثنا، ثمّ جلست من وراء ظهري، فقلت لها من أنت؟ قالت: أنا آسية بنت مزاحم، رضي الله عنها، ثمّ تقدّمت الرابعة منهنّ وهي أكثرهنّ هيبة وأحسنهنّ بهجة، وقالت: من مثلك يا آمنة، وقد حملت بصاحب البراهين والمعجزات، والآيات والدلالات، سيّد أهل الأرض والسموات، عليه من الله تعالى أفضل الصلوات، وأكمل التسليمات، ثمّ جلست بين يديّ، وقالت: يا آمنة، ألقي بنفسك عليّ، وميلي بكلّك إليّ، فقلت لها من أنت؟ قالت: أنا مريم بنت عمران، رضي الله عنها. نحن داياتك وقوابل المصطفى صلى الله عليه وسلّم، قالت آمنة: فاستأنست بهنّ،

وجعلت أنظر إلى الأشباح وهم يدخلون عليّ أفواجاً، ونظرت إلى منزلي، فإذا هو قد اعتكر عليّ بأصوات متشابهات، ولغات مختلفات، الغالب عليها السريانيّة... ثمّ إنّ الله الكريم أمر الأمين جبريل، عليه السلام: أن يا جبرائيل صفّ الأرواح في أقداح الشراب، يا رضوان زيّن الكواعب الأتراب، وافتح نوافح المسك الزكيّة لظهور محمّد سيّد البريّة...، قالت آمنة: فكشف الله عن بصري، فرأيت قصور بصرى من أرض الشام* ورأيت ثلاثة أعلام منصوبات، علماً بالمشرق، وعلماً بالمغرب، وعلماً على سطح الكعبة، فبينما أنا كذلك وإذا بطائفة من الطيور مناقيرهم حمر كالذهب الأحمر، وأجنحتهم كالجوهر الأبهر، فنثروا في حجرتي لؤلؤاً ومرجاناً، ثمّ وقفت الطيور تسبّح الله تعالى حولي وأنا أطلق ساعة بعد ساعة...، قالت آمنة: وانتشر القمر فوق رأسي كالخيمة، واصطفّت النجوم على رأسي كالقناديل البهيّة، وإذا أنا بشربة كافوريّة أشدّ بياضاً من اللّبن، وأحلى من السكّر والعسل، وأبرد من الثلج، وكان قد لحقني عطش شديد، فتناولتها وشربتها فلم أجد شيئاً ألذّ منها، وأضاء عليّ منها نور عظيم، ثمّ نظرت، وإذا أنا بطير أبيض قد دخل عليّ في حجرتي، ثمّ مرّ بجناحيه على فؤادي..."

وفي لحظة واحدة انتفض كلّ شيء أمـــامي وحـــولي، ووقف الجميع وقفة رجل واحد، فزعت، وانتفضت، وعلا صـــوت موحّد موقّع:

الصلاة عليك السلام عليك من باب السلام
الصلاة عليك السلام عليك في جنح الـــظلام
الصلاة عليك السلام عليك يا نسل الـــكرام
الصلاة عليك السلام عليك طـــه يا مؤيّـــد
الصلاة عليك السلام عليك أحمـــد يا محمـــّد

وكانوا يمسحون وجوههم ورؤوسهم وأجسادهم بأكفّهم، واضطربت الحركة قليلاً، لحظتها اجتاحتني ومضة بـــرق! عينـــان قويّتان صدعتا جبهتي، فارتددت إلى الوراء، أحـــدهم رآني لحظـــة ولّدوا النبيّ!

بعد ذلك راحت الأناشيد والمدائح تُوقّع على نقر الدفوف:

يا ذا المُكيّـــا يا ذا المُكيّـــا مديح محمّد عزيز عليّـــا
حبـــيب ســـــــلبتَ لبّي هويدا ســـر بي إلى المُكيّا
وسر بي ليلاً عسى بليلـــه أشاهد ليلي وهي تُجلى
وهي تُجلى للعين تحلـــى أطوف واتملّى على عينيّا

وقل يا هادي فؤادي صادي وحبّك زادي فانظر إليّا

...

اضطربت الجلسة، وتغيّر ترتيب الجالسين، وضاعت بين الجموع عينان أفزعتاني، نعم، خفت! خفتُ أن يبلّغ عن وجودي ذلك الرجل. ربّما أرتكبُ خطأ في تلصّصي هذا، قد يكون في وجودي هنا خطر! حقّاً لقد خفت!

ـ١٤ـ

مؤجّل دائماً، لكنّك موجود!

اليوم، وصلني منك "الإي ميل" الأجمل حتّى اللّحظة:

ليالي بعد الظاعنين شكولُ طوالٌ، وليلُ العاشقين طويلُ

يبدو أنّك بدأت تتقن اللّعبة! إنّها المراوغة، هي فقط التي ستجعلك قطباً في هذه الرواية.

أحاول استحضار وجهك، أُجرّبُ تذكّر ملامحك، وبالكاد أستطيع! هل تعلم، ثمّة شيء غريب ألاحظه على نفسي: كلّ الذين أهتمّ لأمرهم أنسى ملامحهم. تخيّل، إنّني لا أستطيع استحضار وجه أمّي، وأبي! أمّا الآخرون، فيحضرون بسهولة! يبدو أنّ ذاكرتي ذاكرة أحداث، لا ذاكرة أشكال. ولكن حتّى الأحداث تختلط

واقعيّتها بخيالي، فتُصاغ على نحو مغاير لما وقعت عليه فعلاً، ذلك أنّ خصوبة خيالي تتدخّل دائماً في الوقائع، فلا أميّز، بعد مرور عهد، ما حدث فعلاً ممّا تخيّلته، وفي ذلك معاناة حقّاً، لأنّني حينئذ أحمّل الآخرين، وأنت منهم، مغبّة ما لم يحدث!

* * * * *

في الحقيقة، أردت في "إي ميلي" هذا أن أعتذر إليك عمّا تسببتُ به من حرج لشخصك مع مديريّة المسارح في الزيارة الماضية. تعلَمُ جيّداً أنّه لم يكن بإمكاني تأجيل تلك الأمسية القصصيّة، لارتباطات بالسفر والعمل، ثمّ إنّهم لم يبلّغوني من قبل بأنّ المدرّج محجوز في ذلك التوقيت لاحتفاليّتهم، وكنت قد رتّبت أموري بناء على ذلك الموعد. على كلٍّ: الجلسةُ في مقرّكم أكثر راحة وحميميّة، والناس وأنا استمتعنا على الرغم من صغر المكان، والازدحام، فالبيوت بأهلها يا سيّدي! وعلى الرغم من عتبهم عليك أو غضبهم، أعرف أنّك سعيد من أجلي!

ثمّ إنّ مثل هذه المواقف تتكرّر كثيراً، سواء من هذه الجهة، أم من غيرها. مرّة حدّثني أحد الأدباء بأنّه طلب إلى صديقه الشاعر الشهير أن يزور مدينتنا، ويقيم أمسية شعريّة فيها، فاشترط الشاعر أن تكون الأمسية واللّقاء شعبيّاً لا رسميّاً، فوعده الأديب بذلك،

وتقرّر أن يكون اللّقاء في صالة سينما يملكها أقرباء ذلك الأديب، تتّسع لعدد ضخم من الحضور. غضب مسؤولو دائرة الثقافة، ومسؤولو الدوائر كلّها، ومحافظ المدينة، وقاطعوا الأمسية التي لم تكن بدعوة منهم، على الرغم من توجيه الدعوات إليهم، ولم يطلّ أحد منهم ليرحّب على الأقلّ بضيف المدينة الكبير، بل كادوا يمنعون الحدث، لولا أنّهم حسبوا حسابات أخرى.

في تلك الأمسية التي غصّت فيها صالة السينما بالحضور، رحّب الأديب بالضيف العزيز، وقدّمه بذكر حادثة تاريخيّة تقول:

كانت زوجة الخليفة تطلّ من شرفتها على شاطئ النهر، وإذ بها ترى الناس يتّجهون زرافات ووحداناً نحو مكان واحد، ويتجمهرون فيه، فسألت: ما الخبر، فقالوا لها: إنّه الشاعر فلان، والناس يتسابقون لسماع شعره، فقالت: واللّه إنّه العزّ، وليس ما نحن فيه، فالناس تساق إلينا بالسّياط!

ـ١٥ـ

قالت "أيّوبة":

عقدنا اتّفاقيّة. سأوافق على زواجه بهدوء، مقابل ألاّ أكون مطلّقة. وجاءت ضرّتي...

كيف يمكن لامرأة مثلي، ليست سعيدة في حياتها، لا تحبّ زوجها، بل لم تعد تشعر بوجوده رجلاً أن تغار! متأكّدة من أنّني لا أحبّه، ومع ذلك بدأت إبر الغيرة تخزني منذ دخولها علينا. ولكن ما بيدي حيلة، لا أستطيع أن أفعل أيّ شيء، لأنّ الوقت قد فـــات، ثمّ لأنّني الطرف الذي بدأ بالتخلّي والانسحاب، أنا التي كنت ســـلبيّة، وأيّة حركة سأبديها، أيّة محاولة استرداد أو استمالة ستبدو سخيفة، باهتة وذليلة، لذا، ما عليّ سوى السكوت والاحتراق بهدوء.

أغار على زوجي، وأحقد عليه أيضاً، لأنّه سلبني حياتي وحريّتي، وفوق ذلك قهر أنوثتي. لم يعد يقبلني امرأة، لذا تزوّج. هذا الشعور كان يقتلني، أنا الفتيّة التي أتوقّد أنوثة لم أستطع أن أرضيه، فاستبدل بي أخرى.

الأخرى كانت مختلفة تماماً، كانت تكبرني بسنوات، وكان هو زوجها الثاني. بدوت أمامها طفلة أمام امرأة، امرأة مكتملة، امرأة وقحة جسداً وملامح وسلوكاً.

منذ الأيّام الأولى سلّمت أسلحتي، واعترفت لنفسي بأنّني لا أستطيع مجاراتها، فقرّرت أن أحوّلها من عدوّ إلى معلّم، أو إلى شيء ممتع أراقبه بحياد، وحاولت أن أفعل ذلك حقّاً:

لطالما رأيتهما معاً! تجلس في حضنه بغلالاتها الشفّافة، أو بأثوابها الملوّنة المثيرة، تداعبه، تحتضنه، تحادثه، تطعمه، لم تكن تخشى شيئاً. وكان هو ينقاد إليها، ويجاريها... وحينما تضبطني أراقبهما، كانت تتمادى أكثر في مقاربته، وتنظر إليّ بقوّة ووقاحة، فأخجل، وأبتعد مقهورة، باكية، حانقة. أمّا هو فلم يكن يقبل بأيّة حركة في حضوري، ولا بأيّة مداعبة، حتّى لو كانت بالكلام، بل كان يغضب، ويصرخ في وجهها، إذا ما حاولت التقرّب منه أمامي. ربّما كان يشعر بتأنيب ضمير، أو خجل، أو شفقة!

وأنا تتمازج في نفسي مشاعر لا يمكن توصيفها: غيرة تجعلني أبكي أحياناً طوال اللّيل، حنق يمسك بصدري، حقد، كره، رغبة في التدمير، في الضرب، في الانتقام، إثارة، حزن، شعور بالظلم...

كانت امرأة مغرية حقّاً، كسرت رأسي، ولقّنتني درساً. أراهما ينامان معاً، يستحمّان معاً، يتسامران، وأنا لا أحد يسألني شيئاً، أو يطالبني بأيّ شيء، حتّى أعمال المنزل لم تكن تطالبني بها، كانت تقوم بكلّ شيء بلا تذمّر أو ملل. لا أستطيع أن أعترض، كانت المرأة لطيفة معي، تعاملني كأنّني طفلة، لدرجة أنّني كنت أشعر أنّها زوجة أب لا ضرّة.

شتاء:

أوقدتُ ناراً وجلست، هم أيضاً أوقدوا ناراً في أرض الخوش، كان البرد شديداً، البخار يخرج من فمي، كلّ شيء يغمره الصقيع إلاّ قلبي. كان لهب النيران الحمراء في تلك المظلمة يبدّد بردي ووحشتي، ورائحة الحطب المشتعل تزيدني أنساً، ونقر الدفوف، وأصوات المنشدين، كلّ ذلك كان يحمل إليّ الدفء

والطمأنينة. الأناشيد هذه المرّة كانت أكثر فرحاً وانطلاقـاً! تبـدأ بإيقاعات بطيئة، ثمّ تتسارع، ثمّ تعود بطيئة.

كان ثمّة شيخ قدير يجلس في طرف الحوش، حيـث نـار أخرى مشتعلة، وحوله مجموعة من الرجال، مجموعة مميّزة يرتـدون لباساً غريباً: أثواب بيضاء ضيّقة من الأعلى، واسعة من الزنّـار إلى الأرض، ويضعون على رؤوسهم قبّعات طويلة غامقة، أشـبه مـا تكون بالقلبق، كانوا جميعاً شبّاناً، أستطيع تمييزهم جيّداً، بل بينـهم شيخان أو ثلاثة، لكنّهم يبدون كالشـباب، ويوجـد طفـلان في المجموعة أيضاً. كانوا جميعاً يترنّحون بحركة واحدة علـى إيقـاع النشيد، ثمّ دعاهم شيخ ليقتربوا أكثر من المصـطبة ولينخرطـوا في الصفوف، فلبّوا. وما أن اعتلى أحد الشيوخ المصطبة متربّعاً حتّـى راحت الأصوات تعلو مطالبة: البُردة، البُردة، البُردة... فراح شجيّ الصوت ينشد بلحن عذب حزين أبياتاً أعرفها، سمعتها في صـغري فأحببتها كثيراً، لكنّني لم أكن أتثبّت من مفرداتها، أمّا الآن فلفظهـا واضح طليق:

أمن تذكّر جيران بذي سلم

مزجت دمعاً جرى من مقلة بـدمِ

أم هبّت الريح من تلقاء كاظمةٍ

وأومض البرق في الظلماء من إضمِ

فما لعينيكَ إن قلتَ اكففا، هَمتا

وما لقلبكِ إن قلت استفق يهمِ

أيحسب الصبّ أنّ الحبّ منكتمٌ

ما بين منسجم منه ومضطرمِ

لولا الهوى لم تُرِق دمعاً على طلل

ولا أرقتُ لذكر البان والعلمِ

...

إلى أين حملني الصوت!

تذكّرت مدرستي، تذكّرت "عليّ" صديق طفولتي، جنازة أبي، وحزن أمّي، ولم أفق إلاّ على اشتداد نقر الدفوف، والدموع قد أثقلت خماري. لكن يبدو أنّني لم أكن وحدي الباكية، لمحتُ رجلاً يبكي، إنّه هو، ذو العينين الضيّقتين! دموعه كانت تبرق في العتمة، ووجهه طافح بالنور، اختشع قلبي، واقشعرّ جسدي، ما الذي يمكن أن يبكي رجلاً!؟

أوّل مرّة في حياتي أرى رجلاً يبكي! وددت لو أنّي احتضنته، قبّلت جبينه وخدّيه، ومسحتُ دموعه، وددتُ لو ألصقته

بصدري، ومسحت على رأسه، ودفّأته في هذا البرد، لو احتضنت كفّيه بكفّيّ، قبّلتُ راحتيهما، لو أنّي مسّدتُ قدميه: حبيبي، أيّ حال أنت فيه!

كان يجلس منفرداً عن المجموعة قليلاً، ما هذا الرجل! يبكي كطفل، بل يجهش! أردت أن يلمحني، أن ينظر إليّ، فيرى دموعي، فيعرف أنّي معه، أنّي أشاركه الألم، والذكرى، والخشوع.

كان الجلوس قد أخذهم الحال، يتمايلون باستسلام، بعضهم يضرب يمناه بظاهر يسراه موقّعاً الأناشيد، وآخرون كانوا يميلون بجذوعهم إلى الأمام فالخلف، بحركة منتظمة موقّعة أيضاً، ورؤوس آخرين تترنّح. وما هي إلاّ لحظات حتّى قام أصحاب الأثواب الواسعة، دنَوا على التوالي من شيخهم، كأنّهم يستأذنونه، ثمّ توسّطوا الجلسة ضامّين أذرعهم متصالبة إلى صدورهم، راحوا يدورون على مهل، أثوابهم العريضة كانت تلتفّ متثنّية على بعضها، فخشيتُ أن تعيق حركتهم. بعضهم يشتدّ دورانه، وآخر يُبطئ، رؤوسهم مرفوعة إلى السماء، ونظراتهم محلّقة. خشيتُ أن يلمحوني، فأخذتُ حذري. الآن اشتدّ دورانهم جميعاً، فانفرشت الأثواب إلى أقصى مدى كالياسمين، وعلا النشيد الراقص:

يا إمام الرشد يا سنـــدي أنت باب اللّه ومعتمدي

وبدنيـــاي وآخـــرتـــي يـــا رسول اللّه خذ بيدي

رأيتهم فراشات، طيوراً، تدور وتدور. وتفـتح أذرعهـا المضمومة إلى السماء، ضارعة. كيف لا يدوخون، كيف لا يقعون! أدهشوني، بل شدهوني، إنّهم يحلّقون بنظراتهم، بأجسادهم، وقلبي يتكمّش بطرف ثوب طائر، ويطير...

أخذني الحال، فرحتُ أتنقّل برشاقة، وأفتـل بـين نقـرة وأخرى، وكأنّ جسدي فارقني وارتمى بينهم، ولم أفق من صبوتي إلاّ حينما بدأت الحالة تهدأ، ففاجأني جسدي! نعـم، كنـت أرقـص كمجنونة!

ليلة أخرى:

هذه اللّيلة ليست كسابقاتها!

جمع كثير، بل ازدحام، ووجوه جديدة، أضـواء كثيفـة، نيران أكثر اتّقاداً، ونساء.

أوّل مرّة ترتاد المكان نساء، نساء ملفّعات بالسواد بحيث لا يبدو منهنّ شيء، وأخريات محجّبات الحجاب التقليديّ بحيث تبدو وجوههنّ وأكفّهن، وغيرهنّ يضعن مجرّد إيشارب. كـنّ يصـعدن

الدرج إلى غرفة تطلّ نوافذها على الحوش، حيث تنعقد الجلسة. لا بدّ من أنّه حدث مهمّ!

بعد قليل، قدمت مجموعة من الرجال معها أغراضها، أو عدّتها، ووراءهم جماعة من النساء، يبدون ضيوفاً. الجميع رحّب بهم، لاسيّما بشيخهم الوقور.

لقد احتفوا بهم احتفاء مهيباً، قام الجميع، وقدّموهم، واختلط الحضور ببعضهم، وزادت الضوضاء، ثمّ صنعوا لهم طعاماً فتعشّوا، يبدو لي أنّهم قدموا من سفر، فأشكالهم، ولهجة حديثهم ولباسهم يفصح عن أنّهم ليسوا من هنا، بل من بلد آخر. كانت النساء تطلّ بين الفينة والأخرى من النوافذ ثمّ تتراجع، وكأنّهنّ لم يشهدن بعد ما جئن من أجله.

رُفع الطعام، وبدأ الشباب يحمّون الدفوف على النيران. وبدأت النساء تتجمهر على النوافذ، كنّ كثيرات، ملأن أكثر من غرفة، وبعضهنّ صعد إلى سطح الدار، فصرن جاراتي، اقتربت من الجدار الفاصل بيننا، وسألت إحداهنّ أن ماذا يجري، فقالت: هي جلسة ذكر للشيخ "الراوي" ومريديه، إنّه شيخ جليل، صاحب طريقة مميّزة، جاءنا من العراق، وهو ضيف شيخنا الكبير.

انضممت إلى جاراتي عبر جدار السطح الواطئ، وما هو إلاّ وقت قصير حتّى أنزلونا، فدخلنا الغرف لنراقب من وراء النوافذ، بحيث نراهم ولا يروننا.

دارت الدفوف وتعاورتها الأكفّ، المدائح غير المدائح، والأناشيد ليست كعهد الجماعة بها، إنّها بلهجة عراقيّة، وبلكنة تجمع بين الرِّقّة والجزالة، معانٍ حزينة، ولحن أكثر حزناً، وأصوات شجيّة، قصائد ترثي الإنسان، وتندب الجنس البشريّ، وتحكي عن الموت، وعن فراق الإنسان لأهله ووطنه وأحبّته، وحزنه عليهم وحزنهم عليه، قصائد تحمل كلّ حزن الإنسان وألمه مذ خلق حتّى اليوم. علمت من الضيفات العراقيّات أنّ اسمها "الفراقيّات". قلّما تلحظ عيناً لا تبكي أو تتباكى، بعض الرجال بلّلت الدموع لحاهم، وبعضهم تغضّن وجهه، والنساء حولي كنّ يبكين، وبعضهنّ يشرق بدمعه.

كان معظم رجال الصفّ الأماميّ، من مريدي الشيخ العراقيّ، قد ذابوا في حالة من الانسجام عجيبة، تختلف عن حالات الآخرين، لقد كانوا يحرّكون رؤوسهم وجذوعهم إلى اليمين واليسار بحركة موقّعة على نقر الدفوف، ويضربون بأكفّهم على

أفخاذهم، وقد ثنوا أرجلهم إلى الخلف وجلسوا عليها. صاحت إحدى النساء: بدؤوا يشيخون!

كان شباب يحمّون على النار عيداناً، بل هي قضبان حديديّة منبّلة، إنّه الشيش. قالت إحدى النسوة: أرجو أن يكملوا، أن يصلوا!

يبدو أنّ بعضهم بدأ يدخل في حالة غياب عن الوجود. قام ثلاثة منهم كانوا يشيخون بشدّة، كلّ منهم تناول قضيباً، اقتربوا من شيخهم، والجميع يصيح: اللّه، اللّه، اللّه، لا إله إلاّ اللّه، لا إله إلاّ اللّه، ...

لقد احتدم الأمر، والمتفرّجون يراقبون بانشداه: ماذا سيحصل بعد أن وصلت الأصوات إلى الجبّار؟ الكلّ ينتظر، لكنّ الإيقاع بدأ يتباطأ، والنقر يخفت، والأصوات تخبو، وعاد الثلاثة إلى أماكنهم جالسين، وقد راح البعض يهدّئهم، ويمسح عرقهم، ويضرب على وجوههم ليستفيقوا. لم يعطهم الشيخ الإذن!

للمرّة الثانية حدث الموقف نفسه، تكرّرت الحالة، لكنّهم لم يصلوا كما قالت المرأة، محاولتهم باءت بالفشل. ولكن إلى أين سيصلون؟ كنت أسأل نفسي.

لا أدري لَمَ صار الرجال ينظرون إلى فوق حيث نحن وراء النوافذ. طلبت امرأة عراقيّة أن نرتدّ جميعاً إلى الداخل، ففعلنا، وإذ برَجُل يصعد ويكلّم بعض النسوة...

صاحت المرأة: النجسة بينكنّ عليها أن تبتعد. لم تبد أيّة امرأة حركة! كرّرت المرأة: الحائض، أو المجنب عليها أن تبتعد عن النافذة، لقد تأذّى القوم!

الحمد للّه لم أكن أنا! ابتعدت بعض النسوة، وعدنا للمراقبة من جديد.

الآن، علت لا الأصوات فقط، بل الأرواح، واشتدّ الصوت:

اللّه، اللّه، اللّه، لا إله إلاّ اللّه، محمّد رسول اللّه...

حيّ، حيّ، اللّه حيّ، اللّه حيّ، اللّه حيّ...

كنت أردّد معهم، أعصابي مشدودة، وقلبي يخفق...

قام خمسة قد فقدوا كلّ سيطرة على أنفسهم، ودخلوا في صبوة، اقتربوا من الشيخ، وكلٌّ شيشه في يده، أبعد الشيخ ثلاثة منهم، فأجلسوهم، وهدّؤوهم، أمّا الآخَران فقد وقفا أمام الشيخ عاريَي الصدر، فمسح على بطنيهما، وتناول منهما الشيش والقوم في الخارج وحولي يصيحون: اللّه، اللّه، اللّه، والدفوف تكاد

تنشقّ من الضرب! وفي لحظة غياب عن الدنيا، غزّ الشيخ الشيش في بطن الرجل، وأخرجه من ظهره.

كلّ ما أتذكّره بعد ذلك كان شهقتي، لأنّني لحظتها غبت عن الوعي...!

لا أدري كم لبثت مغمى عليّ، لكن بالتأكيد ليس طويلاً، لأنّ الأصوات في الخارج ما تزال تطرق مسمعي، والجلسة مستمرّة. لكن في اللّحظة التي استعدت فيها أوّل وعيي لمحت في غبشة عينين تتماوجان كعسل ينسكب، وبين الحلم والعلم استطعت تمييزهما، لقد كان هو، ذا العينين الضيّقتين، كان طبيبي!

كنت أسمع النساء:

ـ أفسحوا المجال للحكيم. دعوا الدكتور يعرف شغله.

ـ دعوا المخلوقة تتنفّس!

وبإشارة من يده أبعدهن. لمحت النظرة الحانية نفسها التي رأيتها في جلسة سابقة، ما شاء اللّه! حقّاً نور وجهه أربكني، الموقف كلّه أربكني، وبلا إرادة منّي، بل بلا وعي، قبضت على يده بشدّة، وبلمح البصر قبّلتها كمجذوبة! سحبها بحركة عفويّة، وقد بدت عليه الدهشة، لم ينطق، ظلّ محدّقاً بي، عيناه تسمّرتا في عينيّ حتّى أدمعتهما، فأغمضت:

ـ دائماً النساء يوقعننا في مشاكل، قلت مئة مرّة ليس من الضروريّ أن تشهدن ضرب الشيش، اسمعن المدائح فقط، قلوبكنّ ضعيفة ولا تحتمل، لكنّكنّ لا تسمعن الكلام!

نبضكِ متسارع، بسبب الانفعال، حرارتك أيضاً مرتفعة، هل كنتِ تشكين من شيء قبلاً؟

ـ لا...

ـ قد تكون حالة صدميّة، عليك أن ترتاحي وتتدفّئي، أحضرنَ بطّانيّة. إن لم تتحسّني، أو إن شعرت بشيء راجعيني، إليك عنوان العيادة. عليك العافية، إن شاء اللّه!

قام وهو يقول: كفاكنّ، ابتعدن قليلاً، إن رأوكنّ سيتضايقون.

حينما خرج كان قد أخذ معه كلّ سَكِينة، لم أر في حياتي هدوءاً ووقاراً وسماحة وجه كالتي هو عليها! وظلّ لساني حالي يلهج: ما شاء اللّه!

نهاية:

شيئاً فشيئاً راح بطنها يكبر، في تلك الآونة كانت نوبـات الأمومة تجتاحني، كانت تلك رغبتي الوحيدة، لكنّ وجودي لم يطل بينهم، فماذا سيفعلون بي! لست سوى عبء.

جاءت أمّي و"أوديت" لتأخذاني، بكيت بصمت، لم أودّع شيئاً. لم بكيت؟ لأنّني مطلّقة، لأنّني محرومة، منبوذة، لأنّني عائدة إلى حارتي، لأنّ حياتي انتهت هنا! ربّما لذلك كلّه. نسيت كلّ أسـاي في ذلك المكان وشعرت أنّه شيء حميم، حزنت كثيراً على الفراق! سامحتهم جميعاً، كما سامحت أبي من قبل وحزنت لموته. في اللّحظة التي أغلقتُ فيها الباب ورائي، كان قلبي قد اقتُلع من مكانه، عزائي الوحيد هو أنّني أبقيت بيني وبين العالم خيطاً!

إلى العمل، إلى العمل:

بدأت أتردّد على حلقات النساء اللّواتي تعرّفتُ إليهنّ، وأستمع إلى دروس الدين، أدرس القرآن الكريم والسيرة النبويّة، لقد أبليت حسناً، حتّى أدخلوني المدرسة التي تشرف عليها الجماعة لأتابع تحصيلي العامّ. نلت الشهادة الإعداديّة، فالثانويّة، وأنا أتعلّم الأصول، وأقرأ الشروح والتراجم، ثمّ بدأت يدي تمتدّ إلى أشياء أخرى، الأدب: الشعر، وكتب الأخبار والرحلات. كنت أتعلّم بهدوء، أتعلّم بشراسة، وأعمل في ضمّ السُّبَح، نعم، السُّبَح.

منذ أن بتّ طالقة، أخذ طبيبي بيدي، كان أحد المساهمين في إنشاء المجموعة وتمويلها:

ـ ستعملين في ضمّ السُّبح.

في الصباح الباكر أمشي عبر الأزقّة المسقوفة، رائحة الرطوبة تؤنسني، والأعشاب المنبثقة من بين فجوات الحجر في الجدران تدفعني إلى الحياة. أنقّل قدميّ على الأرض المرصوفة بالحجارة العتيقة، وأنا أوقّع: اللّه، اللّه، اللّه، اللّه، يشبه طريق مدرستي القديمة! وحينما تلوح نهاية الزقاق أحثّ خطاي لأستقبل السماء وتحتها القلعة، أشحذ همّتي من شموخها، وأحتضنها بنصف دورة لأدخل في الأسواق حولها.

محلّ صغير مربّع، لا يكاد المرء يستطيع أن يتحرّك داخلـه، بواجهة تشرق وتبرق بخرز من مختلف الألوان والأحجام. أجلـس وحدي لأضمّ السبح، حبّة وراء حبّة، تليها حبّة. شهور، بل سنوات مرّت وأنا لا أضمّ إلاّ السبح! يمرّ عليّ بين الفينة والأخـرى أحـد أعضاء المجموعة، يطمئنّ على عملي، ويأخذ من بضاعتي إلى محلاّت أخرى.

لم يكن العمل مضنياً، لكنّ الوقت كان طويلاً، والصـمت لم يزدني إلاّ صمتاً. فقط عالم من الألوان اللاّمعة، تخـدع العـين، وتزيغ البصر حتّى تنفلت الحبّات من بين أصابعي، وكثيراً ما تُضيّع الإبرة الثقب فتدخل في إصبعي، أو تكون الحبّة مسدودة فأجاهـد لفتحها، و...تك، تك، تك... الحبّة تطرق أختها! أتـراني بعـدُ أستطيع أن أعيش بعيداً عن عالم الضوء والموسيقا!؟ هذا العالم الذي يغرقني في تأمّلات وأسئلة، أعيد فيه صياغة ما قرأت، وما عرفـت، وما خبرت، فأخترع عوالم أخرى، وأعيش فيها! كلّ شيء في عالم السبح يعنيني: الخيط المفتول الحريريّ، أو البلاستيكيّ، الخرز الملوّن الشفّاف الذي نسمّيه "الكريستال"، والخرز الملوّن المصمت، كنـت أكرهه، لكنّني أحببته بحكم العشرة، كان ضمّه أسهل من ضمّ الآخر "الكريستال"، الذي كنت أحبّه، إنّه يموج كما تموج نفسي، يمـتصّ

الضوء، فيلتمع ويتلوّن، ويكون في النهار غير ما يكون في اللّيل، في النهار يشبه الجنّة، وفي اللّيل يشبه النار! في كلّ مرّة كان يدهشني! في البداية كنت أشهق مع كلّ موجة، لكنّ شهقتي تحوّلت مع الزمن إلى ابتسامة، أحبّه، على الرغم من أنّه يخدع يدي وبصري، وغالباً ما يفرّ من بين الأنامل، وفجأة تأتي حبّة سيّئة الصقل، فتخدشها، وتدميها.

لم يكن يخرجني من عالمي سوى بعض الزبائن، يتفرّجون أو يشترون، معظمهم من السيّاح. ولكن ماذا يعني العالم بلا رجل؟ رجل! إذن كيف صرت؟

صرت أجمل، تجوهرت أكثر، ابتنى جسدي، وازداد وعيي به وعشقي له، والتجربة صاغت وجهي بطريقة أخرى: صارت عيناي أعمق، ووجنتاي أكثر شحوباً، وشفتاي أكثر التهاباً، وقلبي.. صار أكبر، وأصبر.

زيارة:

حينما رفعت رأسي، غمرتني صورتان أليفتان، وغيّبني عن العالم ــ ربّما لثانية ــ شعور دافئ نثره الوجهان اللّذان أعرفهما جيّداً. اضطربت، وانفلتت بعض الحبّات من الخيط الذي كنت

أضمّ، وحرتُ بين الوجهين، سبحان اللّه كم يشبهه! هذا يعني أنّ زوجته تحبّه أكثر ممّا يحبّها! هدّأت الفكرة من روعي على نحو ما.

لم تتغيّر ملامحه كثيراً، ظلّ وجهه هادئاً ونظيفاً. كان يكلّمه بلغة أجنبيّة، وقد ارتدى الطفل ذو السنوات الثلاث تقريباً، لباساً شعبيّاً من الذي يستهوي السيّاح (جلاّبيّة بيضاء مقصّبة، وطاقيّة رأس "عرقيّة"، وصرماية حمراء).

أردت أن أكلّمه، أن أذكّره، أن أحتضن طفله، لكنّ تعطيلاً أصابني، فأشحت بوجهي.

اشترى له سبحاً ملوّنة، تناولها "عليّ" الصغير بدهشة، وراح يقلّبها بين كفّيه البضّتين، همس أبوه في أذنه شيئاً، فالتفت الصغير إليّ ودمدم برطانة طفوليّة إفرنجيّة: "السلام عليكم". ثمّ خرجا، وتركاني!

حبّ سماويّ:

كيف لا أحبّ مُخلّصي ومرشدي! وكيف لا يحبّني هو، ويحبّني الجميع، وأنا التي انتفضتُ في الهزيع الأخير لإحدى اللّيالي، حين دنا ربّ العرش فتدلّى، فأصبح قاب قوسين أو أدنى من سمائه

السابعة، لا إله إلاّ هو، ليقول: هل من مستغفر فأغفر له، هل من سائل فأجيبه؟

فتحت قلبي بسلام، وسجدت ضارعة: إلهي! بالتجلّي الأعظم! بثّ حبّي في قلب كلّ من يرى وجهي!

وكان ذلك.

كنت كلّما رأيته ارتعشت وانكسرت نظرتي من نور وجهه، ومنذ اللّيلة صار زوجي. طالما تخيّلت، وتلجلجت بين قرارات كثيرة، كنت مشتّتة بين السعادة والقلق، بل بين الحبّ والجلال.

حين دخل عليّ أُضيء المكان، وملأته رائحة المسك، بدا مؤتزراً بالبياض، فردّدت في نفسي: ما شاء اللّه، لا قوّة إلاّ باللّه!

احتضنني لحظة أدخلتني في حالة خشوع، ثمّ، ثمّ بدأ يعرّيني...

حينها لا أدري ماذا ألمّ بداخلي، انقلاب! نعم، مشاعري انقلبت، ونفرت، لكنّني لم آتِ بأيّة حركة.

كنت عارية في الفراش، وهو أيضاً، لكنّني لم أجرؤ على النظر إليه! أأقول إنّي لا أريده؟ أجل، لا أريده، ولا رغبة لي به.

كان جسدي قد خلا من أيّ إحساس سوى القشعريرة والاشمئزاز، كأنّني أرتكب إثماً، كمن ينتهك حرمة المقدّسات، هكذا شعرت!

عمّت السكينة حياتي، الاحتضان كان ذروة نشوتي. كان طيّباً، ودمثاً، وكريماً، يلاعبني، ويمازحني، ويكفيني. الجانب الآخر هو الذي كان ينغّص عليّ حياتي، لا رغبة لي به. كنت أفكّر أحياناً بأنّ رغبتي بزوجي السابق كانت أكبر، مع أنّي لم أكن أحبّه! كيف يمكن أن نحبّ ولا نريد، وأن نريد ولا نحبّ!؟ قد تتأجّج رغبتي به مع الأيّام! لكنّ الأيّام لم تمنحني تلك الفرصة.

هذا الذي صورته الأولى، وهو يبكي بخشوع لا تبرح ذاكرتي، وتلك النظرة التي أحرقت جبيني يوماً...

هذا ذو العينين الضيّقتين طلّقني.

حدّثني يومها بوجوم، وبصوت متهدّج تقطعه بعض الدمعات، كنت أسمع فقط...

لقد أمره الشيخ الكبير أن يطلّقني، فهو لا يرضى أن أكون ضرّة لابنته، وزوجة أب لأحفاده. وكان أمر الشيخ الكبير مفعولاً.

ـ ١٦ ـ

توتّرني "إي ميلاتك" المقتضبة الغامضة، بالطريقة ذاتها الـتي يوتّرني فيها تجاهلك لما ورد في "إي ميلاتي"، فأضطرّ في كلّ لقاء إلى أن أبدأ الحديث من جديد في قضايا ظننتُ أنّنا انتهينا منها، هل هو عدم اهتمام، أم رغبة في التحقّق؟ أم لعلّه حبّ الشيء، فالإكثار من ذكره!

وحينما أحدّثك عن تلك الموضوعات، تَرُدّ ـ اسمح لي ـ كأبله، وتمغمغ الحديث. ثمّ أكتب لكَ طِوال "الإي ميلات"، لتمحقها بـ"إي ميل" أشبه ببرقيّة:

"thank u 4 info"

ما هذا يا رجل!

*****

اليوم أتيت بهبرة خروف، سأصنع الـ "الشيكا"، منذ أيّام وأنا أشتهيها!

نقعت البرغل، ودققت عليه بصلة، وتبّلته بالملح، والكمّون، والبهار، والفلفل، ودبس الفليفلة الحمراء. صارت رائحته شهيّة، تماماً كـ "شيكا" أمّي في رمضان.

وضعت البرغل المتبّل في "الغدارة"، لقد أحضرتها معي، إنّها إحدى الأواني التي لا يُستغنى عنها عندنا، وهي وعاء من الفخّار، غير عميق، ومفتوح، يُفرك فيه البرغل. خشونة الفخّار مع الدعك المستمرّ كفيلة بهرس البرغل وتذويبه، بعد ذلك يخلط البرغل الذي يصير أحمر بفعل الفليفلة بالهبرة النيّئة، ثمّ يوضع عليه البقدونس والبصل المفرومان، ويخلط المجموع، ويفرك لوقت طويل حتّى يصبح خليطاً متماسكاً. يُقطّع بأصابع اليد قطعاً صغيرة. إنّها من أشهى الأطعمة، بل الأشهى بالنسبة إليّ.

تلك أكلة من أكلاتنا الشائعة، لا سيّما في رمضان، إذ لا تخلو سفرة الإفطار من دونها، قبل أذان المغرب بدقائق ترى الأولاد يحملون أرغفة الخبز الكبيرة تلفّ قطعاً كبيرة مكوّرة من "الشيكا"، التي أرسلتها أمّهاتهم إلى جارٍ أو قريب. لا أتخيّل رمضان بلا صحن "الشيكا" يزيّن السفرة!

وأصل الكلمة "chiga" تركيّ: شي كفتا، في "حلب" تسمّى "كبّة نيّة"، لا يضعون معها البقدونس والبصل المفرومين، وعلى الرغم من أنّ أهل "حلب" صاروا يستخدمون الفرّامة الكهربائيّة لطحن البرغل، يصرّ أهل مدينتي على هرسه بـ"الغدارة"، في الحقيقة أوافقهم، فـ"الشيكا" ألذّ من الكبّة النيّة!

يسرّني أن تشاركني صحن "الشيكا" هذا، كما أنّ لديّ رغبة في أن آخذك إلى مدينتي، مدينتي التي كدت أنكرها أمس، إذ زرتها بعد انقطاع دام سنة ربّما.

ليس ثمّة مكان يمكن أن أتمشّى فيه هناك، حيث كنّا نفعل أنا والأصدقاء، أو الأهل، أو الناس، في ذلك السهل الواسع المنبسط على كتف النهر، وعلى التلّة التي تعلوه، ذلك المكان الذي كنّا نخيّم فيه، أو نقرأ، أو ننكش التراب بحثاً عن فطر الكمأة!

حتّى المزارع التي كانت حوله بدأت تتآكل شيئاً فشيئاً، وترتفع محلّ أشجار الحور، التي طالما درأت عنّا العجاج، هياكل حجريّة لـ"فيلّات" ضخمة.

بات المكان محرّماً علينا، نحن المواطنين، وقد كان للجميع، إذ كان من أملاك الدولة، وقبل ذلك بثلاثين أو أربعين سنة خلت كان لنا، لجدّي، ولجدّ أبي، ولأجداد أناس آخرين، إذ تمّ بتحديد

قانون الملكيّة الاستيلاء عليه، ووضعه تحت يد الدولة، واليوم بات إقطاعات تُوزّع. لقد بيعت الأراضي بأمر من صاحب الأمر، بربح يتجاوز الألف ليرة في المتر المربّع، هذا يعني أنّ أرضاً مساحتها مئتا متر، يُربح فيها للجيب الخاصّ مئتا ألف ليرة! هذا عدا المساحات التي تُقام عليها "فيلاّت" أولئك الذين كلّما رأيتُهم على شاشة التلفاز، أو في صحيفة، أو وجهاً لوجه، أجدني مضطرّة لتفسير العلاقة بين صورهم وأشكالهم وبين خوفي!

باتت "الشيكا" جاهزة للأكل، تفضّل!

*****

في عودتي إلى "حلب" مررتُ بـ"آيوبة"، فوجدتها مضطربة، وعلى عجلة من أمرها، تضع أرديتها بلا اهتمام، وكانت تبكي...

سألتها:

ـ ما بكِ؟ أخارجة أنت؟

أخبرتني بأنّ جارهم "أوديت" قد ماتت، وهي ذاهبة إلى الجنازة.

كنت أدرك تماماً ما تمثّله "أوديت" بالنسبة لـ"أيّوبة"، فعلى الرغم من أنّها جزء لا يتجزّأ من رحلة الألم، إلاّ أنّها كانت الجزيرة الآمنة في تلك اللّجّة.

الفضول ذاته الذي ورّطني في تلك القصّة، دفعني إلى أن أطلب من "أيّوبة" مرافقتها، فلم تمانع. واتّجهنا معاً إلى كنيسة "الكاثوليك" في حيّ "العزيزيّة"، حيث جسد عجوز مسجّى أمام المذبح.

لم أكن أعي ما يقال وما يردّد من قبل الناس ورجال الدين، لقد شغلني عن ذلك بكاء "أيّوبة" الذي ما انقطع لحظة، وجلال المكان الذي كان جزءاً من جوّ الموت المهيب. قد يبدو من العبث، أو من قلّة الاحترام أن أتلهّى عمّا يجري بمراقبة الثريّات الفخمة، والأيقونات، والخشب الذي أعجبني كثيراً، خشب من النوع الذي يجود مع الزمن، المقاعد، والطاولات، والمذبح، والخزائن، والأبواب، وغرفة الاعتراف، كلّها من ذلك الخشب البنيّ الغامق، اللاّمع والصقيل، محفور القواعد والأطراف بعناية فائقة، تفوح منه رائحة واخزة، وكأنّه طلي بالأمس، رائحة تبعث على الذعر الذي عرفت سببه، إنّها الرائحة ذاتها التي تَخزُ أنفي حينما أمرّ أمام محلّ صانع توابيت النصارى في حيّ "التلل".

إلى يساري، على طول الجدار وعرضه لوحة عظيمة، رسمت على الطلاء مباشرة: هذا السيّد المسيح يجرجر آلامه، متوّجاً بتاج الشوك!

أمّا المرحومة فلها قصّة أخرى، حقّاً كما يقول المثل: "بواب مغلّقه، وهموم مفرّقة".

كانت "أوديت" امرأة ستّينيّة في المواجهات الأولى لـ"أيّوبة" مع الحياة، اتّسمت بالحكمة، إلى جانب الدعابة والمرح، بل السخرية، وكانت موضع ثقة الجميع واحترامهم. لكنّ وراء تلك الروح ما وراءها!

في صباها أحبّت "أوديت" رجلاً من مدينتها النائية في الشمال الشرقيّ، وأحبّها، وتعاهدا على الزواج على الرغم من كلّ الحواجز بينهما، فالرجل كان متزوّجاً، لكنّه قد هجر امرأته لخيانتها، و لم تقض الكنيسة بالطلاق بعد، منتظرة قرار "الفاتيكان". ومع ذلك هربت "أوديت" معه إلى بيت صديق له في "حلب"، حيث أقاما مؤقّتاً تمهيداً لهروبهما إلى "لبنان"، حيث كان سيسوّي الأوضاع. لكنّ أهلها أدركوها في بيت ذلك الصديق، واستعادوها، وقد حجروا عليها بمساعدة الكنيسة لأكثر من سنة. أمّا هو، وأقصد

الحبيب، فقد غادر البلاد بعد التضييق والملاحقة إلى السويد، وانقطعت أخباره.

بعد مرحلة من التأهيل النفسيّ، وقد آلت على نفسها أن تبقى مخلصة لرجلها، انتقلت "أوديت" إلى "حلب"، وسكنت في تلك الحارة، حيث أهل "أيّوبة"، من غير أن يعلم أحد بقصّتها، وتابعت حياتها عاملة في مصلحة البريد.

ظلّت عازفة عن الزواج، بل لم تكن تُذكر، أو ينظر إليها بوصفها امرأة، فقد تقلّدت خشونة الرجال وأحاديثهم، وارتدت لباس الزاهدات، وتركت الشيب يشتعل برأسها على عجل. وهكذا أدبرت "أوديت" عن الدنيا، وعاشت في ذلك الحيّ، أشبه بعرّابة لناسه. لكنّ قصّتها التي طويت مع الزمن، عادت ونشرت من جديد. فمنذ مدّة التقت في إحدى الزيارات لمدينتها القديمة، بالحبيب الغائب، وذلك في الكنيسة، في يوم عيد. لم يكن وحده، كان معه زوجة وأولاد وأحفاد ومال كثير، وحياة كاملة بهيجة تقف أمام عمر "أوديت" الذي بدّدته الوحدة.

قضت "أوديت" بقيّة أيّامها بالصمت، إلى أن وافاها الموت.

ـ١٧ـ

قالت "أيّوبة":

كلّما خطوت باتّجاه العالم عرفتُ القهر أكثر، وأدركتُ أنّ العمل هو البلسم.

تغيّر المشرفون على عملي، بل تغيّر عملي كلّه. السبحة التي بين أصابعي الآن ليست من الخرز، فقد هجرت عالمه الصغير الملوّن، إنّها سبحة كهرمان، حجر كريم.

السوق العتيق نفسه، أسير في عمقه، ثمّ أنعطف يميناً، فيساراً، فيساراً، وحينما ألج الباب الصغير، أسير باتّجاه أرض ديار واسعة لبيت قديم: بركة، وشجر كبّاد، ورمّان، وعرائش ياسمين، وليوان، وغرفتا مكتب على جانبيه. وفي الجانب الآخر للحوش درج

صغير يفضي إلى قبو واسع، مظلم شيئاً ما، أشبه بمخبر: طاولات كبيرة حوافّها ملتصقة بالجدران، فوقها رفوف، تتوزّع عليها بترتيب أحواض فيها مواد سائلة، صفائح من البورسلان، أوعية شفّافة فوق سطوح بيضاء تعلوها مصابيح، مواقد، قوارير، مناخل، أنابيب، موازين، موشورات، أجهزة غريبة أشبه بالمناقل الهندسيّة برؤوس لاقطة، محمولة على أقراص دولابيّة، براميل صغيرة ذات مقاطع سداسيّة، فيها ماء وأحجار، مستندة على أقراص...

المكان مفعم بروائح خاصّة، غريبة على أنفي. النيران، والأبخرة التي رأيتها تتصاعد في المرّات القليلة التي سُمح لي فيها بدخول المكان حملتني إلى عالم عجيب، طالما عشت تفاصيله في أفلام الأطفال: أوكار السحرة، والمغارات العجيبة، بأبخرتها، وقواريرها الملوّنة، والأميرة وأميرها الذي يحمل إليها إكسير الحياة، والأخرى الشرّيرة التي تبحث عن إكسير الحبّ لتحصل على رجلها، وضحكات الساحرات الشرّيرات الحادّة الرنّانة، كلّ ذلك يتردّد في ذاكرتي كلّما أجلت نظري في المكان الذي أشعر أنّ بينه وبين أرض الديار فضاء زمنيّاً بعيداً! وأبعد منه غرف الطابق العلويّ المشمسة، التي تحوّل بعضها إلى ورشات عمل، وثمّة غرفة أخرى، إنّها المكتبة، مكان عملي الرئيسيّ، تجاورها غرف العرض.

والأخيرة، متاحف حقيقيّة، كلّ منها تحتوي على خزائن زجاجيّة برفوف، خشبيّة الإطارات، بنيّة لامعة، بأقفال برونزيّة مفاتيحها مشغولة بتخاريم فائقة الجمال، حتّى ليحسبها الناظر من عالم القصور. على الرفوف تتوزّع أحجار تحمل كلّ منها بطاقة كتب عليها بالعربيّة واللاّتينيّة. أحجار بأشكال وقطوع وأحجام مختلفة، ملوّنة بألوان ما رأت عيني مثلها من قبل! فالأزرق ليس واحداً، والأحمر، والأصفر، والأخضر، والرماديّ... إنّه عالم الألوان الذي لا يمكن للعين أن تراه إلاّ في هذا المكان! وثمّة صخور موزّعة بأناقة على طاولات خشبيّة صغيرة في أرجاء الغرفة، إنّها قطع من الحجر الغريب، توحي بخشونة ملمسها، عرفت أنّها الأصل "الفلزّات".

أقول إنّها روعة، متعة! إذا كان عالم الخرز قد أفرحني وأدهشني، فهذا العالم سرقني، سرقني إلى النهاية! الحجرة الواحدة لا يمكن أن أتّفق مع نفسي على لونها! كلّ يوم أجدها بلون، بل كلّ نظرة أجدها بلون! أحياناً أشتهي أن ألتقطها بين أصابعي وأهرسها، وأحياناً أخرى أرغب في أن أوقف بريقها الذي يعبث بعينيّ، وأحياناً أشتهي أن آكلها أو أحتضنها، كلّ وجه من وجوهها يمثّل عالماً، وعالمي في هذا العمل ألفيته الأجمل منذ أن انخرطت فيه.

كان عملي بعيداً عن المخابر وأبحرها، أقرب إلى غرف العرض. في المكتبة، حيث كتب وصور ولوحات تزيدني في كلّ لحظة قرباً من عالم المتعة هذا، من القصور السحريّة في "ألف ليلة وليلة"، من حكايات السندباد، ومن طفولة ما عرفتُ منها إلاّ القليل. كلّما توغّلت في هذه المجاهل ازددت حبّاً بالتراب، وبالسماء، وبالبحار، وازددت قرباً من خالقها!

كان عملي أن أقرأ، وأتعلّم، وأُحدّث. أن أقرأ قصص الأحجار، وأعرف دلالاتها، وأسرارها، والمعتقدات حول تأثيراتها، فأُحدّث بها الزبائن والزائرين، وأُرغّبهم كلاً حسب حاجته.

صفحة فصفحة، وقصّة فقصّة، رحتُ ألبس الدَّور، صرت عرّافة، أقرأ الأحجار، والعيون، والقلوب، بل أقرأ كلّ شيء حولي: ماء البركة، أوراق الشجر، العصافير، النمل، وأُفسّر، وأؤوّل في ضوء ما قرأت، وأكثر منه في ضوء مزاجي، وأحلامي.

أشياء كثيرة اختلفت، صرت أكثر انفتاحاً، أكثر ثقة، وأقلّ خوفاً، وإن لازمني الصمت طويلاً، لكن كلّما احتجت إلى الكلام كان العالم كلّه يتضافر، ليجعل منّي محدّثة مدهشة، لأنّني كنت أحدّث بقلبي، بخلجات نفسي إنساناً، امرأة، لكنّها ليست مجرّد أنا، إنّها امرأة منذ أوّل حجر!

لم أتخلّ عن لباسي الأسود، الذي تحوّل إلى نموذج جديد: الجلباب الطويل، وغطاء الرأس الحريريّين، أثقلتهما بالعقود المحلاّة بأحجار ملوّنة، مزيّفة طبعاً، لكنّها تنسجم مع المشهد العامّ. كلّ ذلك جعل وجهي أكثر تألّقاً، وأكسبه مسحة من غليان الأنوثة، لا سيّما عيناي اللّتان أبرز الكحل الذكاء فيهما، بحيث صرت أبدو كنساء الأساطير، وممّا زاد مظهري أسطوريّة، الحذاء في قدميّ، خفّ لامع بلون الفضّة، بمقدّمة معقوفة إلى الأعلى، كأحذية أميرات "بغداد" في الخيال.

لم أكن أدري إن كنت أفعل ذلك مسيّرة، أم متعمّدة، ولكن أعلم أنّي كنت راغبة وسعيدة، وبأنّي صرت أكثر إقناعاً، صرت جزءاً من ذلك العالم المسحور الذي عشقت التماهي معه حتّى صرت كثيراً ما أنسى العالم خارجه.

دم الحمام:

مثيرة، مثيرة! كلّما نظرت إليها شعرتُ بالشرر يتطاير من جسدي. وفي المرّات القليلة التي أُتيح لي فيها أن أمسكها، كنت أحسّ بأنّني أقبض على جمرة تحرق أصابعي. ولكن كلّما خطر لي اسمها أشعر بالبرودة، وقد أقشعرّ!

وقف الأربعة حول الخزانة يتأمّلون. قالت المرأة لزوجها:

ـ لونها رائع، لكنّني أفضّل الأزرق، فهو يناسب لون بشرتي أكثر!

نظر إليها الزوج بوجوم، كأنّه يريد أن يتذكّر لون بشرتها، وهزّ رأسه.

كانت المرأة تتكلّم بنَزق متعمّد، أمّا الأخرى فكانت صامتة اللّسان، ثرثارة العينين، تراقب الزوجين بضيق، لم تفلح ابتسامتها المفتعلة بين الحين والآخر في إخفائه. أمّا زوجها، فكان يلحق بها خطوة وراء أخرى، ويقدّمها أمامه محاولاً أن يحدّثها، أو أن يضع ذراعه على كتفها، ويلفت نظرها إلى هذه الجوهرة أو تلك!

علمت أنّ الرجل الأوّل موظّف كبير في الحكومة في إحدى المحافظات، معظم زبائننا من هذا النوع. لقد بتّ أستطيع التكهّن بهم منذ دخولهم الصالة. كلّ ما يرتدون ويحملون هم وزوجاتهم كان ثميناً، ومع ذلك لا تبدو عليهم أناقة الآخرين، الذين غالباً ما يأتوننا ليبيعونا مجوهرات قديمة. ثمّة شيء فيهم لا يوحي بالانسجام، قد يكون في وجوههم، أو لباسهم، أو كلامهم، أو تعاملهم، لا أدري بالضبط! ولكن ما أعرفه هو أنّني أستطيع تصنيف زبائننا في فئتين:

فئة تنسجم مع عالم المجوهرات، وهي تبيع أكثر ممّا تشتري، وفئة لا تنسجم، وهي تشتري وقلّما تبيع.

المرأة الأخرى وزوجها كانا يبدوان بشكل واضح تابعَين. في اللّحظة التي أراد فيها "المعلّم" أن يتخلّص من رماد سيجاره، اقتحمت الحديث، مقدّمة إليه منفضة السجائر:

ـ إنّه الحجر المفضّل لدى القائمين على السلطة "مدام"! فمنذ مئات السنين اشترى "هارون الرشيد" فصّ ياقوت أحمر بأربعين ألف دينار، عُرف باسم "الجبل"، له شكل ياقوتتنا هذه، وقد نقش عليه اسمه، ونستطيع نقش اسمك، أو اسم السيّد زوجك على هذا الحجر، فنصوغه لك في عقد، أو خاتم إن أردت. كما كان للأمير "يمين الدولة" ياقوتة بشكل حبّة العنب، لها لون هذه الياقوتة. إنّها "دم الحمام"، ولطالما تغنّى بها الشعراء القدامى على أنّها تكوّنت من قطرات دم قلب الأرض الأمّ.

مدام! إنّها تناسب لون بشرتك تماماً، لأنّ لونها يتغيّر بتدرّج مع كلّ حركة بشكل ساحر، بل إنّ بريقها الزجاجيّ سيشعل عينيك في كلّ لحظة، ثمّ إنّها أثمن من جميع الحجر الأزرق إطلاقاً.

أبدى الرجل اهتماماً بما قلت أكثر من زوجته التي راحت تتأمّل بقيّة الأحجار، في حين راح هو يحدّثني:

ـ من أين تستورد هذه الأحجار؟

ـ "دم الحمام" التي أمامك سيّدي جاءتنا من جنوب "سيريلانكة"، لكنّنا نحتناها هنا في ورشتنا، لن تجد نحتاً متقناً كنحت ورشتنا في الشرق الأوسط كلّه ، إنّه نحت "البريان" النموذجيّ.

ـ أليس "البريان" هو الألماس؟!

ـ نعم! هذا هو الشائع. فـ"البريان" هو شكل النحت الأكثر انتشاراً، وهو يلائم الألماس بشكل مدهش، حتّى جرت العادة على الظنّ أنّ كلّ "بريان" هو ألماس، ولكن في الواقع يمكن نحت أيّ حجر وفق هذا الشكل، انظر:

هرمان متعاكسان بقاعدة واحدة تسمّى الاستدارة، القمّة العليا مقطوعة، والسطح الناتج عن القطع هو الوجه الأكبر لـ"البريان"، ويسمّى المائدة، وهذه السطوح حوله نسمّيها الوجيهات. وانظر الهرم السفليّ! ينتهي بوجه مسطّح أيضاً، ولكنّه أصغر بكثير من المائدة...

لم تلق المرأة بالاً لكلّ ما أقول، كانت تبحث عن حجرة زرقاء. الأخرى كانت تستمع، وتتأمّل الحجر بنهم.

سألتُ الزوجة:

ـ في أيّ شهر ولدتِ "مدام"؟

فانتبهت.

ـ نيسان.

ـ معك حقّ، كان عليّ سؤالك منذ البداية. فالياقوت لمواليد كانون الأوّل! الزفير الأزرق هو حجر سعدك سيّدتي، إذ سيمنح كلّ من ينظر إليك شعوراً بالحذر الدافئ!

اقتربت الأخرى منّي، وسألتني بصوت خفيض لا يفتقر إلى اللّهفة:

ـ وهذه الياقوتة، ماذا تفعل؟

ـ الياقوت حارّ، يشعل حامله، ويحرق ناظره!

ابتسمت برخص، وهي تخرج متأبّطة ذراع زوجها، خلف "المعلّم" وزوجته اللّذين اشتريا الزفيرة الزرقاء، وقد اختارت السيّدة شكل العقد الذي سيحمل الحجرة. عندها تذكّرت أن أقول للأخرى:

ـ سيّدتي! "دم الحمام" تحمي المؤمنين من إغراءات الشيطان.

فهزّت رأسها بنصف ابتسامة.

*****

في المساء، كنّا نستعدّ للإغلاق. دخل الرجل نفسه، الموظّف الكبير، تتأبّط ذراعه امرأة، المرأة الأخرى، ذات الابتسامات الخبيثة، وبنظرة المنتصر بحيلة بادرتني:

ـ أعتقد أنّ "دم الحمام" تناسبني، فأنا من مواليد كانون الأوّل!

وقفا أمام الياقوتة، وتحدّثا مطوّلاً، وهي تلتصق به، وتهمس في أذنه بعهر، فيضحك بصوت عال، محتضناً كتفها.

حينما خرجا بفاتورة "دم الحمام" مع العقد الذي سيحملها بعد أيّام، سألت نفسي: من أين يأتي الناس بالمال! كم يملك هذا الرجل ليشتري في يوم واحد عقدين بمئات الألوف من اللّيرات!

كلّ ذلك تبادر إلى ذهني في اللّحظة التي قابلت فيها الزوجة، مع العقد ذي الزفيرة الزرقاء، بعدما يزيد على السنتين:

بدت عليها مظاهر الهدوء والبساطة التي كانت تناسبها أكثر من أناقتها المفتعلة السابقة، وموجة الأسى التي تتأرجح بين قسماتها، جعلتها أكثر توازناً.

جاءت لتبيع العقد ذا الزفيرة، ومجوهرات أخرى، زوجها في السجن!

أشفقت عليها! لو علمت المسكينة بما دار وراء ظهرها يومئذ لخفّت حسرتها عليه. كانت تنظر إلى الأشياء بلا مبالاة، تنتظر ثمنها بهدوء.

بضاعتنا رُدّت إلينا، حدّثت نفسي، وأنا أتأمّل الحجرة، وقد عادت بعد أيّام من المختبر إلى غرفة العرض، أمّا "دم الحمام" فلم تعد أبداً!

عين الهرّ:

مثل تلك اللّحظة قد تأتي مرّة واحدة في الحياة، وقد لا تأتي! إنّها اللّحظة التي يلمح فيها الإنسان قدراً، اللّحظة التي تطالعنا فيها وحشة النهايات، ومع ذلك نصرّ على أن نبدأ! فماذا أفعل بهذا المستميت ليخرج من كهفه؟ ماذا أفعل بجلدي الذي طواه الشوق سنين، بخلجات شفتيّ، بعينيّ، بكلّ قصص الرجال التي عشت، وكلّ قلوب النساء التي حملت، ماذا أفعل بكلّ ما قرأت؟!

كان أكثر وسامة من أيّ رجل رأيته حتّى في أحلامي، وحينما كان يقف مع أحد خبرائنا في أرض الديار، وعالياً نحو الشمس يدوّر بين أصابعه حجرة، أسرتني الكفّان، كفّان من ذلك النوع الذي تتمنّى أن يقبضا على جزء منك.

ناداني الخبير حينما لمحني، وألقى الحجرة بين يديّ: أن حدّثينا:

ـ إنّها من الأحجار الموصوفة للسوداويّين والمكتئبين. وهذا الزرّ البيضويّ الغامق من "زائير"، ولدينا آخر مستدير، من "البرازيل".

رحت أدوّر الحجرة بين أصابعي، وهو مصغ باهتمام شديد:

ـ هل ترى هذه الموجة، هذه اللّمعة الحليبيّة على السطح؟ انظر كيف تتحوّل إلى ضوء فضيّ ناعم، أليست اللّمعة ذاتها التي تصدر عن عين الهرّ!

فتمتم:

ـ عين الهرّ...

قرأت بردّ فعله الأوّليّ نجاحي في الاقتحام الأوّل، هكذا تقرأ هذه الأشياء، بفواتحها! وحينما رفعتُ ناظريّ إلى وجهه التقطت الضوء الفضيّ ذاته!

بقدر ما تبعث كفّاه في النفس الطمأنينة، ترهبك عينان جامدتان، تجتاح إحداهما تلك اللّمعة المريبة بين الحين والآخر، مع نبضة مفاجئة تحت الجفن. حينما بقينا وحدنا قلت:

_ هل الحجرة قُدّت من عينيك، أم عيناكَ قُدّتا منها!

كان ذلك هو الاقتحام الثاني.

لم يسعفه جسده الصغير الأربعينيّ على الوقوف أكثر في الشمس، ورأسه الأبيض المحمرّ الذي عبثت به يد الحلاّق حتّى لم تذر فيه شعرة، فخرج كرأس عفريت، وكذلك أناقته الشبابيّة المفرطة.

صعدنا إلى صالة العرض، وطلبنا القهوة. أخبرني أنّه هاو للأحجار، وتاجر في بداياته، يسافر بين البلدان، فيشتري، ويبيع، وهو يخطّط للاستقرار هنا، وفتْح مشغل، وأنّه سيتردّد كثيراً على ورشتنا، ليستفيد من خبرائنا، ذلك أنّ علاقة وثيقة تربط بين أبيه ومالكي مشغلنا.

*****

ينتمي هذا الرجل إلى نموذج مغاير لكلّ ما عرفت، أكثر جرأة، وشباباً، وانفتاحاً...

يشبه بعض زبائننا الذين يلفّون حول أعناقهم إيشاربات، ويحملون بين أصابعهم تلك السجائر البنّية الطويلة الرفيعة، ويتكلّمون بلكنة أخرى، مطعّمين لغتهم بمفردات أجنبيّة، أنفاسهم

مبتورة، وعباراتهم دائماً تنتظر تتمّة، وهم يجرؤون على الضحك معك بقهقهات عابثة، ولمس يدك، أو كتفك أثناء الحديث.

أدركت فيما بعد أنّ عالمه الغريب، والغامض بالنسبة إليّ هو الذي دفعني إلى اقتحامه، فالتعلّق به شيئاً فشيئاً.

صار يتردّد كثيراً على المشغل، يبيع ويشتري، ويراقب، ويتفرّج، ويجلس عندي بالساعات، ولم يكن وجوده مستهجناً، ذلك أنّ معلّمينا أوصَوْنا به خيراً.

تلك الساعات فتحت القنوات بيننا كلّها، فأنا لم أكن أتحرّج من شيء، إذ ركبتني كالشيطان فكرة اقتحامه حتّى النهاية، وهو لم تكن تنقصه الجرأة، والإعجاب ربّما...

تحدّثنا عن كلّ شيء تقريباً، وصرنا نلتقي في أماكن عامّة، لا سيّما في فترة الغداء.

لقد تغيّرتُ كثيراً! لكنّها الطريق التي لم أسلكها بعد، الطريق التي تتعاكس مع كلّ طرق حياتي سالفاً، ربّما أنجح هذه المرّة في تحقيق سعادتي!

في الحقيقة، كنت مهيّأة لحالة عشق، إذ لم يعد باستطاعة جسدي أن يحمل قلباً فارغاً، شارفت على الثلاثين، وباتت رغبتي

عارمة في الزوج، والبيت، والأطفال، واشتهيت أن يكون هو، فجاهدت لأفرض وجودي على حياته.

*****

كان يسافر بين الحين والآخر إلى أوربة، وأمريكا، ونيجيريا، والبرازيل، وسيريلانكة...

وفي كلّ مرّة أشعر بفراغ مقيت، وأتأكّد من أنّه لا يمكنني العيش بلا وجوده في حياتي. صرت أقنع نفسي بأنّ المهمّ في الأمر أن يكون موجوداً، بأيّ شكل، وليس بشكل معيّن، فالمسألة ما عادت تهمّني!

هذه المرّة غاب في "البرازيل" شهراً. يوم عودته كان يوم عيد، فاجأني بسمرة مكتسبة، أضفت على بروده شيئاً من التوقّد، أخرج من حقيبته الدبلوماسيّة علبة أنيقة، فتحها بكبسة زرّ:

ـ عين الهرّ، إنّها لكِ!

*****

أوّل مرّة أمتلك شخصيّاً حجرة، على الرغم من حياتي اليوميّة بين الأحجار، فامتلاكها لم يكن طموحاً لي على الإطلاق، كشوّاء لا يشتهي الشواء، أو نجّار باب بيته مخلوع!

قلّت زياراته للورشة حتّى تلاشت، لكنّنا كنّا نلتقي خارجاً ـعلى حدّ علميـ نوطّد علاقتنا.

ودّعني بحرارة هذه المرّة، وزعم أنّ سفراً طويلاً عرض لـه، وبعدها ستنفرج الأمور، ونكون معاً.

كنت مطمئنّة، مفعمة بالأماني، لكن مع غيابه الطويل عـاد الحزن ليشاركني أيّامي. صرت عصبيّة، وليس لي طاقة على العمل أو الكلام!

بعد فترة اكتشفنا في الورشة أنّنا فقدنا بعض المجـوهرات: مجموعة خواتم لم تُعرض بعد، وعقدين غير ناجزين، ينتظران بعـض الأحجار ليُتمّما، كانت جميعها موجودة في درج واحد، يبدو أنّـه تُرك بلا إقفال!

التحقيقات لم تسفر عن شـيء، والموضـوع لم يتجـاوز الورشة، لكنّ خيبتي كانت كبيرة، بحيث لا يمكنني الحديث عنها.

كنت متأكّدة من أنّه هو، لكنّني أكذّب نفسي مئة مـرّة في اليوم، وأعيش على أمل ظهوره، ليثبت لي أنّه ليس هـو. لم أجـرؤ على الإفصاح عن شكوكي، إذ لم يكن أحد يعلم بلقاءاتنا، وحيث أنّهم أغلقوا الموضوع، لم أجرؤ على فتحه من جديد، فأصير طرفاً. ومع ذلك بقيت على أمل، قطعته حينما كنّا في "دبيّ".

كان هناك جهاز جديث جدّاً لفحص الأحجار بالأشـــعّة. فحصنا أحجارنا، كانت كلّها أصليّة، ثمينة، أو كريمة، إلاّ حجرتي، عين الهرّ، التي أهداني إيّاها، فقد كانت الوحيدة المزيّفة.

ـ١٨ـ

ألا تعلم أنّني غير مؤهّلة عصبيّاً لمثل هذه المفاجآت!

على الأقل، "إي ميل" بسيط تخبرني فيه عن موعد حضورك لأكون مستعدّة لهذا اللقاء. قلت لك إنّك صرت تتقن اللّعبة، لكنّك يا صاحبي شططت، "علّمناك على الشحادة، سبقتنا على الأبواب"!

ماذا سأفعل بك في "عمّان"! وقتي ضيّق، وعملي كثير، ولا أحبّ العبث ببرامجي فجأة!

صحيح أنّك أثلجت صدري بخبر مؤتمرك هنا، ممّا يعني امتلاء وقتك، لكنّك ضيفي، وسأبقى ملتزمة بك نفسيّاً إلى أن تسافر.

لا تغضب، هي الحقيقة مجرّدة من المجاملات.

أعرف أنّك تحبّ "عمّان"، تحبّ هدوءها، ونظافتها، وأبنيتها المميّزة، وامتدادها الأفقيّ المريح للعين، وشبكة مرورها المتطوّرة، وأنا أيضاً أحبّ كلّ ذلك!

في طريقنا إلى "البحر الميت" توقّعت ردّ فعلك، لأنّه سبق أن حصل لي حينما سرت فيها للمرّة الأولى. إنّها تلك اللّوحة المروريّة اللاّفتة!

كلّ السوريّين الذين مرّوا بها معي حدث لهم الشيء ذاته، كوننا بعيدين عن التماس الجغرافيّ المباشر مع تلك الأماكن.

على يمين تلك الطريق التي لابدّ منها لزائر "البحر الميت"، الطريق التي يبدأ بالشوق، وتنتهي بالغصّة، لوحة تقول: "القدس ٤٠ كم"!

تخيّل! ٤٠ كم فقط وترى قبّة الصخرة، التي لم يكتب لنا، ولا لآبائنا رؤيتها إلاّ على شاشة التلفزيون. لقد باتت أرضاً محرّمة علينا، وها هي تتجسّد أمامنا حلماً يمتدّ على لافتة مروريّة على قارعة الطريق.

لم تخفَ عليّ قشعريرة كانت تنتابك بين الفينة والأخرى على طول درب الآلام ذاك، ورأيتك تكفكف دمعات تغلبك بين جبل، وواد، وأفق ينتهي في "فلسطين".

كم أشعلنا شموعاً يومها!

في كلّ كنائس التاريخ التي زرناها يومذاك أشعلنا شموعاً: في كنيسة "مأدبا"، وفي جبل "نيبو"، حيث وقفنا وقفة "موسى" عليه السلام في نظرته الأخيرة إلى أرض الميعاد، وحيث أطللنا على المكان الذي ضرب فيه الصخر بعصاه، فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً. وفي "المغطس"، حيث عمّد "يوحنّا" "يسوع الناصريّ".

*****

في زيارة ماضية إلى المكان نفسه، نصحني صديق كان معي، قائلاً:

ـ أشعلي الشموع، وتمنّي، فالصلوات هنا مستجابة، لقد كان معنا في الرحلة السابقة صديقة من بلد عربيّ، كانت تفعل ذلك، فما إن وصلت بلادها حتّى صدر قرار تعيينها وزيرة. فأرسلت إلينا أنّها كانت تصلّي من أجل ذلك في كلّ كنيسة زرناها.

يومها صلّيتُ كثيراً، ودعوت اللّه أن أغفل مرّة عن حذري، أو أن يغفل عنّي الحذر، فأتورّط في منعطف، وبعد أيّام تعرّفت إليك!

وها أنا اليوم أشعل الشمع، وأضمر الدعاء بالتوفيق، و لم أك أتوقّع أنّ توفيقي سيكون بغيابك!

لقد بدأنا بشمعة وصلاة، وانتهينا بشمعة وصلاة.

*****

يا رايحين عَ حلب حبّي معاكم راح

يا محمّلين العنب تحت العنب تفّاح

بقدر ما أثار غضبي "إي ميلك" الأوّل، المفعم بالشكر التقليديّ، والمجاملات الرصينة، تقطعها عبارات أشبه بعبارات وداع غير وشيك، أثارني بغبطة "إي ميلك" البرقيّ هذا، وأشعرني بأنّك عدت إلى صوابك الذي كثيراً ما تفقده، لتتحوّل إلى شخص آخر لا أعرفه. فغادرت "عمّان" على شوق، كأنّ الريح تحتي...

بدت "حلب" أمامي في بزغة الفجر حمامة رماديّة، على أحد جناحيها تزهو القلعة بين العتمة والنور بأضوائها الصفراء، وفي ظلّها مكتبك الذي سأكون فيه بعد سويعات. وعلى الجناح الآخر جامعتي، ورفاق الدرس، وهناك المركز التلفزيونيّ، حيث عملي، وصَحبي، وفي مكان آخر هوى القلب، فهوت قلوب.

شعور في تلك اللّحظة باغتني، فخفت، تصوّرت نفسي بعد يومين مدبرة عن كلّ هذا، وعلى ظهري حقيبة، شعور أشبه بحلم يقظة! وخطرت لي "رحلة المتنبّي إلى مصر":

" وإلى اللّقاء إذا استطعتُ
وكلُّ من يلقاكِ يخطفه الوداعُ
وأصبتُ فيكِ نهاية الدنيا، ويصرعني الصراعُ
والقرمطيّ أنا. ولكنّ الرفاق هناك في حلبٍ
أضاعوني وضاعوا".

* * * * *

لطالما خشيت من شكوكي! شكوكي تلك التي تتجلّى أمامي بلا مقدّمات، كرؤوس شياطين صغيرة، ربّاه أهذا الحدس نعمة أم نقمة!

أردت أن أفاجئكَ بحضوري، ففاجأتني بغيابك. الآخر الفرنسيّ الذي كان يجلس وراء مكتبك أخبرني بانتهاء تمثيلك الثقافيّ في "حلب"، والذي كان محدّداً بسنتين فقط، وبعودتك إلى "فرنسة"، وأخبرني، وأخبرني...

كيف يمكن لك أن تفعل هذا!

لم تكلّف نفسك عناء "إي ميـــل"، أم أنّـــني لم أعِ، أو لم أرغب في أن أعيَ عبارات الوداع المتلجلجـــة، والشـــكر، في "إي ميلك" قبل الأخير! لكنّ ما أرسلته مؤخّراً محا ذلك، وحرّضني على البدء من جديد، فقادني إلى هنا بقلب مشرع الأبـــواب، وبقـــرار ظننتك أردته كلّ ذلك الوقت.

أردتُ أن نتورّط معاً في منعطف ما تورّطت فيه من قبـــل، لكن يبدو أن لا أحد يدير ظهره لقدره!

ما فاجأني، وقهرني حقّاً، هو ذلك الانسحاب بـــلا إنـــذار واضح، وذلك التنكّر لكثير من الوقـــت، والكـــلام، والمشـــاعر، والـــ"إي ميلات"، وكأنّنا عابرا سبيل قالا لبعضهما: مرحباً!

ثمّ التنكّر للرواية الإلكترونيّة بيننا!

إنّ نفسي تحدّثني بأنّ ثمّة شيئاً فاتني إدراكه.

* * * * *

ما زال هناك الكثير في "حلب"! فبغيابك ظلّت القلعة محلّها، والأسواق ما تزال موّارة بأصحاب الحاجات تجّاراً، وسيّاحاً...

والمركز التلفزيونيّ ما زال يعجّ بالزملاء، والرفاق. والأماكن قائمة، والذكريات جاثمة، و"أيّوبة" مـــا تـــزال هنـــاك، في جـــامع "العادليّة"، وأنا أزورها، وأسوح، وأشتري، وأقرأ، وأكتب، وأرتاد

المحافل الثقافيّة، والسهرات الفنيّة، كما كنت أفعل دائماً، وفي كلّ ذلك أبحث عن فكرة جديدة لرواية جديدة، مع أنّ روايتي هذه لمّا تنته، ولن تنتهي بهذه السذاجة! فحينما أفكّر بنا أجد أنّ ما حصل ليس مقنعاً على الإطلاق، فلا يسعني سوى أن أقول: "ستبدي لك الأيّام ما كنتَ جاهلاً"!

ـ ١٩ ـ

هديّة الشمس:

قالت "آيوبة":

حملتُ إليهم العلب ليلة العيد. أوصلني السائق إلى حيث تقطن السيّدة، إنّهم في عالم آخر، في الوجه الثاني لـ"حلب"، "حلب الجديدة".

هدوء يخيّم على العالم، "فيلاّت" مدهشة، بل قصور مركّبة من الحجر الحلبيّ الأبيض، تحيط بها حدائق غنّاء. وقفت بالباب محاطة بالكاميرات، قادتني خادمة سوداء إلى الداخل، كلّ شيء من المرمر، والذهب، والفضّة، والكريستال، الأرض، والجدران، والسقوف، والأعمدة، والتحف، والأدراج، والأفاريز. ثراء فاحش!

لم لا، وقد جاء الرجل أمس، وهو من أهمّ زبائننا، ومن الأصحاب المقرّبين لمالكي العمل، بل من الأصحاب المقرّبين لكلّ التجّار، والأغنياء، والمتنفّذين، ورجال السوق، ورجال الدين...

طلب أن أحمل إلى بيته أجمل المجموعات وأحدثها، لتختار منها السيّدة، وبناتها، وكنّاتها، هدايا أو عيديّات بمناسبة عيد الأضحى.

طوال عمري أعرف أنّ العيديّة في أحسن الأحوال لا تزيد على ألف، أو ألفي ليرة، أمّا عيديّات بمئات الألوف، فلم أسمع عنها في حياتي، هل نحن في "حلب"، أم في "ألف حلب وحلب"!

أفقت من ذهولي على صوت خادمة أخرى، "سيرلنكيّة"، تحمل كأساً من عصير البرتقال، لم أذق أشهى منه، كأس ليست كالكؤوس، على صينيّة تحفة! تناولت الكأس، وما زلتُ واقفة أتأمّل في هذه الفرجة الزجاجيّة الواسعة، التي لا تشوبها شائبة، حتّى ليكاد المرء يصطدم بها من دون أن يراها، إذ يحسب القاعة تنفتح على تلك الحديقة الرائعة، التي تتوسّطها بركة واسعة، يترقرق ماؤها الأزرق النظيف، ويلمع تحت الشمس، وحولها أشجار من كلّ صنف ونوع، لا بدّ من أنّها الجنّة!

قادتني خادمة ثالثة، هذه المرّة بيضاء، إلى قاعة أخرى، وإذ بامرأة تخرج من بركة ماء، بركة ثانية، داخل القاعة. امرأة مذهلة! راحت تجفّف جسدها وشعرها بمساعدة الخادمة، وهي لا تنقطع عن الترحيب بي.

لم تتجاوز الأربعين، بيضاء كالياسمين، لا يشوب بياضها كدر، ذات شعر أشقر يصل كتفها لا أكثر، بعينين زرقاوين، وجسد بضّ، ممتلئ، طويل، ترتدي "مايوه" أحمر، مكوّناً من قطعتين، لا بدّ من أنّها إحدى الحور العين!

امرأة كاملة الحسن، مترفة، مرفّهة، لا أثر لوهن في جسدها أو وجهها، يداها تلتمعان، ورجلاها، وأظافرها مشغولة ومطليّة بعناية، امرأة منحوتة نحتاً، ولطيفة، فالابتسامة لا تفارقها، وهي تتحدّث بلهجة حلبيّة ممطوطة من كثرة الدلال.

ارتدت فوق "المايوه" "روب"، وجلسنا إلى طاولة على حافّة البركة، وبدأت الضيافات تنهال عليّ.

في الحقيقة أخجلتني، وأذهلتني بلطفها وكرمها. أشعلت سيكارة، وقدّمتها لي، فاعتذرت، فألحّت، وحلفت، فجاملتها. كانت المرّة الأولى التي أمسك فيها السيكارة، لكنّني كنت مسيّرة حتّى اللّحظة، مأخوذة بتلك الأبّهة.

قدّمتُ لها العلب، فرفعت غير متعجّلة سمّاعة إلى جانبها، وضغطت زرّاً، فاستدعت الجميع. نزلت البنتان، والكنّتان، كنّ أيضاً من حور الجنّة: جمال، وأناقة، وخفّة. لكنّها تبدو أصغر من أن يكون لها مثل هؤلاء الصبايا! حتّى الكنائن يشبهنها في الشكل والحضور، تساءلت في نفسي: ممّ هي مصنوعة هذه العائلة؟

حتّى الآن كنت صامتة، أردّ على أسئلة المجاملة، وعبارات الترحيب فقط، وحينما التففن حولي، بدأ دوري:

فتحت العلب كلّها، ومع كلّ علبة كنت أسمع شهقاتهنّ، وتعبيراتهنّ عن الإعجاب، ثمّ بدأن يتصايحن، ويتخاصمن:

ـ أريد هذا...

ـ لا، هذا لي...

أسكتتهنّ السيّدة بصيحة ممطوطة، فتدخّلتُ، وأمسكتُ علبة، وقدّمتها لها:

ـ ما رأيك بهذا الطقم؟ إنّه من أجمل ما صُمّم، وهو أغلى هذه المجموعات على الإطلاق.

راحت المرأة تفحّصه بهدوء، ثمّ تنقّل عينيها بين العلب الأخرى.

تناولتُ العقد:

ـ هذه الحجرة المستطيلة في الوسط من الزمرّد الأصفر، وهو حجر نادر، لأنّ الزمرّد عادة أخضر! انظري كيف تشعّ مع الحركة، أليست كالشمس! اسمها هديّة الشمس، وهي من "مدغشقر".

كنت واثقة من أنّها لا تعرف أين هي "مدغشقر"، بل لم تسمع بها، فهنّ على الرغم من كلّ الأبّهة المحيطة بهنّ لا يفرّقن بين الواحد والعصا، فتعليقاتهنّ، وأحاديثهنّ تنمّ على جهل مدقع، وسطحيّة.

ـ انظري إلى هذه "السوليتيرات" المركّبة حولها طوليّاً، ثلاث على الميمنة، وثلاث على الميسرة، إنّها كفيلة وحدها بإبهار الأبصار. ثمّ الساعدان، هما من الذهب الإيطاليّ الأصفر، مشغولان بشكل نابض "زمبلك" عريض، إنّها أحدث الصياغات العالميّة.

ويتبع العقد القرط، والخاتم، والسوار، وكلّها من هدايا الشمس.

كانت السيّدة قد اقتنعت بالطقم على الأغلب، وحتّى لا أترك لها مجالاً للتردّد قلت:

ـ الزمرّد الأصفر يطيل الشباب، إذ يقي من المرض، لاسيّما من أمراض الكبد.

كان الطقم رائعاً حقّاً، بحيث لا يمكن لنفس مقاومته، لذلك تحمّست المرأة والبنات جميعاً، فقالت السيّدة:

ـ هذا لي.

* * * * *

بصعوبة تخلّصت من الأسئلة، والتعليقات، والطلبات، ومن قولة: أريد هديّة الشمس، وأريد زمرّداً أصفر...

فقطعتُ الحديث:

ـ لا، الصبايا الصغيرات في هذه الأيّام يفضلن الفيروز!

وبدأت أعرض أمامهنّ أطقم الفيروز المصوغ مع ماس وذهب أبيض، أحجار بأشكال مختلفة، بعضها حفرت عليه آيات من القرآن الكريم. اقتنعن بكلامي، وساعدتني السيّدة، فكانت تؤيّد كلّ ما أقول.

ـ هذا الفيروز كلّه من إيران، من مكمن قديم جدّاً في "نيسابور"، والفيروز كما تعلمن حجر ساحر، يردّ أذى العين الحاسدة على أصحابها.

اختارت الصبايا كلٌّ طقماً، و لم يعتقني حتّى حدّثتهنّ عن كثير من الأحجار، وأنواعها، وقصصها، وما يدور حولها من معتقدات.

كنّ مدهوشات بمعرفتي، وحديثي، وطريقتي في اللّباس أيضاً!

طلبن إليّ بإلحاح أن أعاود زيارتهنّ، وأن أحمل إليهنّ المزيد من المجوهرات، فمناسباتهنّ التي يبدلن فيها الحلي، كما يبدلن الثياب، كثيرة.

أوصلني أحد سائقيهم إلى المحلّ، وقد بعت خمسة أطقم من أروع المجوهرات. هل يُعقل أنّ ثمّة في العالم عيديّة تزيد على المليون ليرة!

* * * * *

بمباركة أصحاب الورشة، صرتُ أتردّد كثيراً على ذلك المنزل، يرسلن إليّ السائق، فأحمل لهنّ حلياً وأذهب، أحياناً يشترين بعض القطع، وأحياناً يكتفين بالفرجة، والتعرّف إلى الموضة، وعالم المجوهرات، وقد أجد عندهنّ صديقات أو قريبات، معظمهنّ من العيّنة ذاتها، يسدين إليهنّ آراء ونصحاً، ويتظاهرن بالمحبّة، ثمّ يأتيننا إلى المحلّ، فيشترين ممّا لم أحمله إلى السيّدة، طالبات منّي التكتّم.

ثمّ لاحظتُ أنّ السيّدة والصبايا لا يخرجن للتسوّق مطلقاً، كلّ شيء يحضر إلى البيت: الألبسة، والماكياج، والعطور، حتّى الأواني. وهنّ لا يخرجن مع أزواجهنّ، لم يجلسن في مطعم، ولم

يسافرن، ولا يـذهبن إلى مدرسـة أو جامعـة، معلّمتـا الـدين، و"الأيروبيك" تأتيان يوميّاً إلى البيت، وكذلك مزيّنة الشعر وخـبيرة الماكياج، والخيّاطة. وحينما يخرجن يتلفّعن بالسواد، مسدلات على وجوههنّ خمراً لا يظهر منها سوى العينين، ومـع ذلـك يقـدن سيّاراتهنّ بأنفسهنّ عائدات من الأعراس، والحفلات النسويّة آخـر اللّيل!

كنت قد بدأت أحبّ عالمهنّ، وأستمتع فيه. عالم غريـب: بذخ، وترف، وألبسة، وأطعمة، ودلال، وطرب، ورقص. كانـت المرأة تقدّم لي الهدايا بين الحين والآخر، وتعاملني كأنّني فـرد مـن العائلة، وتدعوني إلى غداء أو عشاء، أو حفلة في بيتها.

لاحظت أنّ هذا العالم بلا رجال، فلم أكُ ألمح سوى ولديها الشابّين من بعيد، وأحدهما جريء، بل وقح، وغير مريح إطلاقـاً، ينظر بوقاحة، ويرمي في أذني كلمات بذيئة حـين مـروره قـربي. أتحاشاه.

في تلك الحفلات ذات الأجواء المتشابهة، التي يتنافسن فيها في البذخ والجمال، كان يحدث ما يريبني من لمسات، والتصـاقات، وقُبل، وحركات تبعث في النفس اشمئزازاً ما، وخوفاً ما!

وفي زيارة إلى بيتها على غير موعد وجدت السيّدة منفردة مع صديقتين لها في وضع أثار حفيظتي، وأخافني في الوقت ذاتـــه. لم يستحين من وجودي، بقيت السيّدة كما هي، وراحت ترحّب بي، ولكن بطريقة مختلفة، وكأنّها سكرى! ثمّ اقتربت منّي، واحتضنتني، ثمّ أخذت تتلمّسني بكلّ هدوء، وتقرصني، وتدفعني إلى صـــاحبتيها، محاولة زجّي فيما هنّ فيه. فذعرت، وصرختُ في وجهها، فأمسكت بي بقسوة، وراحت تشدّني من ثوبي، ثمّ ترفعه محاولة تجريدي منـــه، وصاحبتاها تتضاحكان، وكذلك هي. في تلك اللّحظة انتابتني حالة هيستيريّة، رحت أضربها، وأدفعها، وأشتمها، وأهدّدها بالفضـــيحة، ولا أدري أيّ معجزة حملتني خارجاً، لأجدني في طريق البيت.

كنت في حالة ذهول، عملت علـــى اســـترداد تماســـكي، اغتسلت، وغيّرت ملابسي، ونفضت غبار الرعب والقرف عنّـــي، ولساني لا ينقطع عن الاستغفار. وحينما وصلت المحلّ، كان الخـــبر أمامي:

وجدتُ نفسي متّهمة بسرقتها، وبإغواء ولدها، واستغلاله. يعني: "ضربني وبكى، وسبقني واشتكى"!

* * * * *

الجميع هنا يعرفونني تماماً، بل هم الذين ربّـوني. حكيـت لأحد معلّميّ ـ وكان قريبًا منّي ـ كلّ شيء، وقد صـدّقني تمامـاً، ولكن ماذا سيفعلون؟ فهذا صاحب مقرّب، وزبون لا يُعوّض، ومن ورائه زبائن كثر.

عرفتُ فيما بعد أنّ وراء تجارة الخيط التي تمتهنـها تلـك العائلة تجارات أخرى، قذرة، ووراء تلك الصداقات الـتي شـهدتها مصالح، وعلاقات نسب مع رجال دين ودولة.

فلابدّ من التواري قليلاً ريثما يذوب الموضوع الذي لملمت أطرافه الموانات، والصداقات. وعرضت عليّ جماعتي أن أجلـس في البيت وآخذ راتبي كاملاً، أو أنتقل إلى هنا فأداوم من الصباح حتّى أذان العشاء، وكلّ ذلك بشكل مؤقّت طبعاً، ريثما تهدأ الأمور.

نسيت كلّ ظلم أصابني في حياتي أمام هذا الظلم. أوّل مرّة أدعو على إنسان بمثل هذه الحرقة، نعم دعوت اللّه أن ينتقم منهم. يا إلهي، ما أقسى أن يكون المرء متّهماً، ومظلوماً!

* * * * *

سكتت "أيّوبة"، ولم يبق سوى نشيج مقهور، تـردّ عليـه دموعي بصمت. بقينا ربّما ربع ساعة في حضرة هذا الألم، حتّـى

باغتنا أذان المغرب ذلك المساء. فشهدنا معاً: اللّه أكبر، لا إلـــه إلاّ اللّه!

مسحت "آيوبة" دموعها، وقامت لتستعدّ للصلاة. كنت ما أزال واجمة، التفتت إليّ، وقالت:

ــ ما دامت قولة "اللّه أكبر" تتردّد، اعلمي أنّ العالم بخير!

ـ٢٠ـ

حينما عدتُ إلى "عمّان" انشغلت كثيراً بتنسيق عملي، وبرامجي، وما زاد الطين بلّة، هو عبث "فيروس" بملفّاتي الإلكترونيّة. كان عليّ تنظيم أشياء كثيرة في الكومبيوتر، ومنها دفتر العناوين.

وحينما طالعني عنوان بريدك الإلكترونيّ، راودني شعور التوقّف الآنيّ بين عالمين، ذلك الشعور الذي ينتابني أحياناً في أثناء البحث أو الكتابة، حيث أكون موقنة بحقيقة، أو بنظريّة، ولكن لا أجد لها برهاناً، فتنتابني فجأة لحظة الكشف، لأكتشف خطأ خفيّاً سببه تصوّر كلمة محلّ أخرى، أو معنى بدل آخر، فتنحلّ المشكلة، وتكتمل نظريّتي.

لقد كان عنوان بريدك الإلكترونيّ المدوّن في دفتر العناوين، والذي غالباً ما ألجأ إليه حينما أرسل لك "الإي ميلات"، والـذي تصلني منه بعض"إي ميلاتك"، لا سيّما الغامضة منها، غير العنـوان المدوّن أعلى "إي ميلاتك" المنطقيّة، الفارق بينهما حرف واحـد في الاسم الأوّل. كنت أستبدل الـ "O" بـ "U" فقط.

حينها انتبهت فقط أنّه عندما ترد بعض "إي ميلاتك" يظهر عنوانك كاملاً، من دون أن يظهر الاسم المفترض أنّه مدوّن في دفتر العناوين، حيث إذا ما دوّن العنوان مع اسم صاحبه في تلك الخانـة، وردت "الإي ميلات" ممهورة بالاسم لا بالعنوان. "الإي مـيلات" المريبة فقط كانت تأتي ممهورة بالاسم، إذن هي من شخص آخـر، كنت أرسل له معظم "إي ميلاتي"، وقليلة هي "الإي ميلات" الـتي أرسلتها إلى عنوانك الحقيقيّ.

آخ... يا للمفارقة!

قضيت اللّيلة، وأياماً بعدها متنقّلة بين الضحك، والدهشة، والقلق، والحيرة.

من هذا الذي كان يرسل إليّ "الإي ميلات" الملغومة، هذا الذكيّ، العابث، الشرير...

ربّما كانت امرأة، وقد يكون ولداً من المهووسين بـ "الإنترنت"!

لكن لا، ليس ولداً، هو شخص مثقّف، ولديه حسّ أدبيّ رفيع، فهذا واضح من "إي ميلاته" التي كان يتدخّل بها ببراعة، والتي غدت خيطاً لا ينسلّ من نسيج قصّتنا كلّها، فمن أنت الذي اكتشفت كلّ شيء؟ وهل ستكون نواة لرواية أخرى، أم أنّك ستنتهي مع هذه النهاية؟

*****

عموماً، لم أكن أتوقّع أنّ خطأ فنيّاً يلعب بنا جميعاً، وأنّ آخر، لا أحد منّا يعرفه يتلهّى بمصائرنا أنا، وأنت، و"أيّوبة". ها قد كُشفت أوراقنا، وفوّتنا على أنفسنا قصص حبّ!

الآن عليّ أن أسرع في نشر روايتي، قبل أن يسبقني ذلك الرابع، فيهتك سترها.

الكاتبة

• شهلا العجيلي

- كاتبة سوريّة من مدينة الرقّة، مولودة في حلب.
- تحمل درجة الدكتوراه، في الأدب العربيّ الحديث- الدراسات الثقافيّة من جامعة حلب، وتدرّس نظريّة الأدب، والأدب العربيّ الحديث في جامعة حلب.

• من مؤلفاتها:

- "المشربيّة" (مجموعة قصصيّة)، 2005، و"عين الهر" (رواية)، 2006، و"مرآة الغريبة" (مقالات في نقد الثقافة)، 2009، و"الرواية السوريّة -التجربة والمقولات النظريّة" (نقد)، 2009، و"أسئلة الكتابة" (مشترك)، جامعة بشّار- الجزائر، و"مناهج التجديد في العلوم الإسلامية والعربيّة" (مشترك)، 2005 منشورات كلّيّة دار العلوم وجامعة المنيا، مصر، و"الدراسات الثقافيّة ودراسات ما بعد الكولونياليّة"، (مشترك)، 2008.
- عضو هيئة تحرير مجلّة "البحث العلمي"، التي تصدر عن الجمعية الأردنية للبحث العلميّ.
- عضو رابطة الكتّاب الأردنيين، وعضو الاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب.

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

صدر مؤخراً في سلسلة
آفاق عربية

107- مختارات من شعر سميح القاسم.....

اختيار وتقديم : جابر بسيونى

108- مختارات من القصة اليمنية القصيرة.....

اختيار وتقديم : إبراهيم أبو طالب

109- رسائل أوديسيوس .....نورى الحراج

110- قبر بنافذة واحدة..... سعدية مفرّح

111- المقهى الأسبانى.....عائد خصباك

112- مديح الهرب.....خليل النعيمى

113- مجنون زينب.....جمعة اللامى

114- لا أخوات لي.....عناية جاير

115- تصحيح وضع .....أحمد زين

116- تشاو روبرتا.....غالية قبانى

شركة الأمل للطباعة والنشر
(موافيتلى سابقاً)

آفاق
سلسلة
عربية

لم يستطع أيّ أحد، أو أيّ شيء، أن يخرق جدار الصمت الذي اعتصمتُ وراءه، حتّى أنا ذاتي لم أستطع خرقه، كأنّ حالة من الخرس سيطرت عليّ تمامًا، لا أتكلّم، لا أُبدي أيّ ردّ فعل، فقط أصدع لما أؤمر به، في النهار كما في اللّيل، ولكن في النهار أكون أكثر ارتياحًا لأني وحدي، بتّ أكره قدوم اللّيل، صارت وطأته ثقيلة، كانت أكثر لحظاتي بؤسًا هي تلك التي أقضيها معه في الفراش.

الغلاف: أحمد الشهاد

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة
www.gocp.gov.eg
www.althaqafahalgadidah.com.eg
www.odabaaelaqaleem.com.eg
www.qatreinada.com.eg

السعر: جنيهان